حقيقة الكفر بالطاغوت وعلاقته بالإيمان بالله

للشيخ

د. علي بن نفيع العلياني

حفظه الله

وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا

منبر التوحيد والجهاد
WWW.TAWHED.WS

حقيقة الكفر بالطاغوت وعلاقته بالإيمان بالله

للشيخ

د. علي بن نقيع العلياني

الأستاذ المشارك بقسم العقيدة

جامعة أم القرى

مكة المكرمة

١٤١٦هـ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

البقرة: آية ٢٥٦.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً)

النساء: آية ٦٠.

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)

الزمر: آية ١٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)[1]، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)[2]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)[3].[4]

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد: فنظراً لأن مسائل الإيمان والكفر من المسائل العظيمة التي علق الله بها السعادة والشقاوة فقال سبحانه عن الإيمان (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)[5]، وقال سبحانه (فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)[6]، وقال سبحانه (فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً)[7]، وقال عز وجل (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[8]، وقال سبحانه عن الكفر

---

(١) آل عمران: ١٠٢.

(٢) النساء: ١.

(٣) الأحزاب: ٧٠-٧١.

(٤) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه أن يقولوها بين يدي خطبهم، وقد صححها الشيخ الألباني، انظر صحيح ابن ماجه ١/ ٣١٩.

(٥) المؤمنون: ١.

(٦) القصص: ٦٧.

(٧) الجن: ١٣.

(٨) النحل: ٩٧.

(قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[1]، وقال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)[2]، وقال تبارك وتعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ)[3].

ونظراً لأن الله سبحانه قد بيّن في كتابه الكريم بأنه لا يستمسك بالعروة الوثقى التي هي شهادة أن لا إله إلا الله إلا من جمع بين الإيمان بالله والكفر بالطاغوت (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[4].

ونظراً لأن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام قديماً وحديثاً قد التبس عليهم معنى الكفر بالطاغوت ومعنى الطاغوت، فمن القديم أهل وحدة الوجود الذين يجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات والذي يقول شاعرهم:

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك رب ... أو قلت رب أنّى يكلف

وهم الذين يرون اليهود والنصارى على حق وعباد الأصنام على حق[5].

ومن العصر الحديث مجموعة من الكتاب والشعراء المفتونين ومن سار على دربهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وآثروا العاجلة على الآجلة وفرطوا في عقيدة الكفر بالطاغوت اختياراً من غير إكراه فملأوا مؤلفاتهم بالثناء على الفرق الباطنية التي يقول عنها شيخ الإسلام ابن تيمية بأنهم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب وبأن من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم[6].

(١) البقرة: ١٢٦.
(٢) آل عمران: ٤.
(٣) البقرة: ١٦١-١٦٢.
(٤) البقرة: ٢٥٦.
(٥) انظر مجموع الفتاوى ٢، ١٢٤، ١٣٢، ٢٤٢.
(٦) انظر مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٦١-١٦٢.

وبالثناء على العلمانيين الصرحاء الذين يعلنون بأن الدين لا علاقة له بشئون المجتمع السياسية والاقتصادية والإعلامية، ويرون الحدود الشرعية عقوبات وحشية لا تناسب هذا العصر، ومع هذا كله يثني عليهم أولئك المفتونون ويعلنون حبهم لهم ونصرتهم لهم وأنهم معهم قلباً وقالباً وينشرون مؤلفاتهم رضاً بها وبهم ويفرحون بظهورهم وكبت أعدائهم.

فنظراً لكل ما تقدم أحببت أن أسهم بجهد المقل في إيضاح هذا الجانب المهم من أصل الدين عسى أن يكون ذخراً لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وقد جعلت البحث في أربعة فصول وخاتمة:

الفصل الأول: أهمية العلم بحقائق المسميات العقدية.

الفصل الثاني: حقيقة الطاغوت في اللغة والشرع.

الفصل الثالث: حقيقة الكفر بالطاغوت في اللغة والشرع.

الفصل الرابع: العلاقة بين الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

وذيلت البحث بالفهارس المناسبة.

وقد سلكت في البحث جانب الاختصار ما أمكن وذلك لقناعتي بأن خير الكلام ما قل ودل مع حرصي على الإكثار من الأدلة الشرعية وأقاويل السلف الصالح لأن البحث في العقيدة ليس كالبحث في الموضوعات الأدبية التي تعتمد على الإنشاء والمبالغة في تزويق العبارات اللفظية وإنما يهتم الدارسون للبحوث العقدية بالأدلة الشرعية وأقوال الأئمة المقتدى بهم، فحاولت جهدي –ألا أحتج إلا بحديث قد صححه أهل العلم بالحديث ولم ألتزم بتخريج الحديث من جميع كتب السنة بل أقتصر على مصدر أو مصدرين غالباً لأن هدفي هو معرفة صحة الدليل وليس البحث متخصصاً في السنة حتى يتم التوسع في تخريج الأحاديث وجمع طرقها، ولم أعرج على خلافات الفرق البدعية لأن الهدف هو إيضاح هذا الموضوع المهم من الكتاب والسنة وفهم الرعيل الأول له ومن سار على نهجهم من أهل السنة والجماعة.

وفي الختام أشكر الله سبحانه أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على أن يسر لي إتمام هذا البحث، وأسأله أن يجعل عملي خالصاً صواباً، ثم أشكر كل من أعانني بمرجع أو رأي،

وأسأله تبارك وتعالى أن يغفر لي الزلل والتقصير، وآمل من كل من قرأ هذا البحث فرأى فيه خطأ أن يرشدني إلى الصواب وله أجر الدال على الخير.

وسبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وأصحابه،،

الفصل الأول

أهمية العلم بحقائق المسميات العقدية

الحقيقة في اللغة ما يصير إليه حق الأمر ووجوبه تقول أبلغت حقيقة هذا الأمر تعني يقين شأنه[١]، وقال ابن فارس: "الحاء والقاف أصل واحد وهو يدل على إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل.. ويقال حققت الأمر وأحققته أي كنت على يقين منه"[٢].

والحقيقة تكون كنه الشيء كما أراده الله تبارك وتعالى كما قال ابن عمر رضي الله عنه "لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر"[٣]. قال ابن حجر في شرح هذا الحديث" المراد بالتقوى وقاية النفس عن الشرك والأعمال السيئة والمواظبة على الأعمال الصالحة وبهذا التقرير يصح استدلال المصنف[٤] وقوله حاك بالمهملة والكاف الخفيفة أي تردد ففيه إشارة إلى أن بعض المؤمنين بلغ كنه الإيمان وحقيقته وبعضهم لم يبلغ، وقد ورد معنى قول ابن عمر عند مسلم من حديث النواس مرفوعاً وعند أحمد من حديث وابصة وحسّنه الترمذي من حديث عطية السعدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس"[٥].

وقد بوب البخاري في صحيحه باباً بعنوان (باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل)، قال ابن حجر حذف جواب قوله [إذا] للعلم به كأنه يقول إذا كان الإسلام كذلك لم ينتفع به في الآخرة ومحصل ما ذكره واستدل به أن الإسلام يطلق ويراد به الحقيقة الشرعية وهو الذي يرادف الإيمان وينفع عند الله وعليه قوله تعالى (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ)[٦]، وقوله تعالى (فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ

---

(١) تهذيب اللغة ٣/ ٣٧٦.

(٢) معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٦-١٩ وقارن بما في لسان العرب ١٠/ ٥٢.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ١/ ٤٦.

(٤) يريد استدلال البخاري بأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان.

(٥) فتح الباري ١/ ٤٦.

(٦) آل عمران: ١٩.

الْمُسْلِمِينَ)[١]، ويطلق ويراد به الحقيقة اللغوية وهو مجرد الانقياد والاستسلام، فالحقيقة في كلام المصنف هنا هي الحقيقة الشرعية[٢].

قلت فهذه الحقيقة الشرعية هي مرادي من عنوان البحث هنا لأنها هي المطلوبة شرعاً كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه"[٣]. وقال عباة رضي الله عنه في وصيته لابنه: "يا بني إنك لن تطعم طعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره"[٤]، يقول ابن تيمية: "الأسماء التي علق الله بها الأحكام في الكتاب والسنة منها ما يعرف حده ومسماه بالشرع، فقد بينه الله ورسوله كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج والإيمان والإسلام والكفر والنفاق، ومنه ما يعرف حده باللغة كالشمس والقمر والسماء والأرض والبر والحر، ومنه ما يرجع حده إلى عادة الناس وعرفهم فيتنوع بحسب عادتهم كاسم البيع والنكاح والقبض والدرهم والدينار ونحو ذلك من الأسماء التي لم يحدها الشارع بحد وليس لها حد واحد يشترك فيه جميع أهل اللغة، بل يختلف قدره وصفته باختلاف عادات الناس، فما كان من النوع الأول فق بينه الله ورسوله ما كان من النوع الثاني والثالث فالصحابة والتابعون المخاطبون بالكتاب والسنة قد عرفوا المراد به لمعرفتهم بمسماه المحدود في اللغة والمطلق في عرف الناس وعادتهم من غير حد شرعي ولا لغوي، وبهذا يحصل التفقه في الكتاب والسنة"[٥].

ولأن هذا البحث يهدف إلى بيان حقيقة الكفر بالطاغوت وحقيقة الإيمان بالله تعالى والعلاقة بين الكفر بالطاغوت والإيمان بالله هل هو ركن للإيمان؟ وهل يصح الإيمان بونه؟ ناسب أن أبيّن أولاً أهمية العلم بحقائق المسميات العقدية فأقول:

إن الله سبحانه خلق الثقلين لعبادته كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[٦] وهذه العبادة هي التذلل لله عز وجل بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبة وتعظيما[٧]

(١) الذاريات: ٣٦.

(٢) المصدر السابق ١/ ٧٤.

(٣) مسند أحمد ٦/ ٤٤١.

(٤) المصدر السابق ٥/ ٣١٧.

(٥) مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٣٦.

(٦) الذاريات: ٥٦.

(٧) انظر القول المفيد لابن عثيمين ص١٠.

وخوفاً ورجاء. ولا شك أن الجاهل بمعنى الأمر والنهي لو رغب في الاستجابة لهما فإنه لا يستطيع ذلك لعدم تصور المطلوب منه، فهذا عمار بن ياسر رضي الله عنه مع حرصه على الخير وحبه له أجنب في سفر وأراد أن يمتثل أمر الله بالتيمم لمن لم يجد الماء في قوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً)[١]، ولكن لجهله رضي الله عنه بكيفية التيمم للجنب تمرغ في الأرض كما تتمرغ الدابة فلما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك قال: "إنما كان يكفيك هكذا وضرب النبي صلى الله عليه وسلم بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه"[٢].

فعدم العلم حال بين عمار وبين الاستجابة للأمر كما أراد الله، وشبيه بهذا ما ذكره جابر رضي الله عنه قال خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال: "قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال... الحديث"[٣]، فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم مع حرصهم واجتهادهم لم يصيبوا حكم الله في هذه المسألة لعدم علمهم به، ولكي تتضح الحقائق العقدية وغيرها من الأحكام للناس كان من مهمات رسول الله صلى الله عليه وسلم تعليم أمته الكتاب والسنة كما قال عز وجل (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ)[٤]، وقال سبحانه (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ)[٥]، وقال تبارك وتعالى (لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)[٦].

---

(١) النساء، ٤٣.

(٢) البخاري مع الفتح ١/ ٣٧٦، ٣٨٦.

(٣) الحديث حسنه الألباني، انظر صحيح سنن أبي داود ١/ ٦٨.

(٤) البقرة: ١٢٩.

(٥) البقرة: ١٥١.

(٦) آل عمران: ١٦٤.

ولقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمهمته خير قيام فما ترك شيئاً من أمور الدين إلا وبيّنه للأمة حتى تركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[١]، وقد شهدت له أمته بالبلاغ المبين في أعظم مشهد وهو يوم عرفة عام حجة الوداع كما روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر قال صلى الله عليه وسلم: "... وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات..."[٢].

والمتأمل لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يرى أنه ما يترك موطناً يحتاج الناس فيه إلى العلم إلا ويرشدهم إلى ذلك ومن الأمثلة على هذا ما رواه البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قال فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجوا أن يعطاها، فقال أين علي بن أبي طالب فقيل هو يا رسول الله يشتكي عينيه قال فأرسلوا إليه فأتي به فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال علي يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال عليه الصلاة والسلام أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم[٣]. فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر علياً أن يعلم اليهود بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام، ولا شك أن من أعظم ذلك وجوب إفراد الله بالعبادة وإفراده بكمالاته وتنزيهه عن النقص.

وما رواه الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا معاذ إني لأحبك فقلت يا رسول الله وأنا والله أحبك قال: فإني أوصيك بكلمات تقولهن في كل صلاة، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك[٤]. ولا شك أن حسن العبادة يستلزم الإخلاص فيها والعلم بكيفيتها التي شرعت

---

(١) انظر صحيح ابن ماجه

(٢) مسلم مع النووي ٨/ ١٨٤.

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٧/ ٣٦٦.

(٤) مسند أحمد ٥/ ٢٤٧.

عليها ثم إيقاعها على نفس الكيفية لأنها إذا لم تقع على نفس الكيفية التي شرعت عليها لا تقبل كما قال صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"[1].

ولإدراك أهل العلم لأهمية العلم بحقائق المسميات العقدية أبرزوها في مصنفاتهم، فهذا البخاري قد جعل باباً في صحيحه بعنوان (باب العلم قبل القول والعمل) لقول الله تعالى (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فبدأ بالعلم[2]، قال ابن المنير أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل[3]، قلت هذه الآية التي استدل بها البخاري (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[4] من أعظم الآيات الدالة على أهمية العلم بحقائق المسميات العقدية، فلا إله إلا الله عنوان التوحيد، ولا يمكن أن يدخل العبد في الإسلام من غير معرفة لها يدل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى أهل اليمن "إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم... الحديث"[5].

ومنطوق الحديث ظاهر بأنهم إذا لم يعرفوا الله حق المعرفة لا يدخلون في الإسلام ولا يدعون إلى عمل بقية شرائعه، مع أن أهل الكتاب يعرفون بأن هناك رباً خالقاً يحيي ويميت، ولكنهم لا يعرفونه حق المعرفة لا من ناحية صفات كماله ولا من ناحية وجوب إفراده بالعبادة. قال القاضي عياض "ما عرف الله تعالى من شبهه وجسمه من اليهود أو أجاز عليه البداء أو أضاف إليه الولد منهم أو أضاف الصاحبة والولد وأجاز الحلول عليه"[6].

وأهل الكتاب يزعمون أنهم يعرفون الله ولكن جهلهم بالمعرفة الحقيقية لله جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يعتبرهم لا يعرفون الله، قال تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)[7]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية".. وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه

(١) هذه رواية مسلم، انظر مختصر صحيح مسلم للألباني ٣٣٥، وانظر شرحاً قيماً للحديث في جامع العلوم والحكم ص٥٦.

(٢) البخاري مع الفتح ١/ ٤٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) محمد: ١٩.

(٥) البخاري مع الفتح ٣/ ٢٥٥، ومسلم مع النووي

(٦) شرح النووي ١/ ١٩٩.

(٧) الكهف: ١٠٣، ١٠٤.

مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ وعمله مردود كما قال تعالى (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ، عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ، تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً)[1]. ومما يدل على ما سبق أيضاً شرط الرسول صلى الله عليه وسلم لدخول الجنة العلم بلا إله إلا الله حيث قال: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة"[2]، وشبيه بهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل"[3]، فإن الشهادة تقتضي العلم لا محالة كما قال الله تبارك وتعالى (...إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[4]. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية "ولكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم"[5]. ولذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب"... وأما المسائل الأخر وهي أني أقول لا يتم إسلام الإنسان حتى يعرف معنى لا إله إلا الله ومنها أني أعرّف من يأتيني بمعناها... فهذه خمس مسائل كلها حق وأنا قلتها"[6].

إذاً فالعلم بحقائق المسميات العقدية هو سبيل الاستفادة منها، وهذا واضح جداً من قصة وفد عبد القيس لما أتوا النبي صلى الله عليه وسلم قال من القوم أو من الوفد قالوا ربيعة قال مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى فقالوا يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده قال أتدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس، ونهاهم عن أربع عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت، وربما قال المقير، وقال احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم"[7]. فالوفد رضي الله عنهم قد طلبوا أن يأمرهم بأمر فصل والفصل كما قال

(١) الغاشية: ٢-٤، وانظر تفسير ابن كثير ٥/ ١٩٧.
(٢) مسلم مع النووي ١/ ٢١٨.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٣٩.
(٤) الزخرف: ٨٦.
(٥) تفسير ابن كثير ٧/ ٢٢٩.
(٦) الدرر السنية في الأجوبة النجدية ٨/ ٥٣.
(٧) صحيح البخاري ١/ ١٩.

ابن حجر بمعنى "الفاصل كالعدل بمعنى العادل أي يفصل بين الحق والباطل أو بمعنى المفصّل أي المبين المكشوف، حكاه الطيبي وقال الخطابي الفصل البيّن وقيل المحكم"[١].

والرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أكد على أهمية فقه حقيقة الإيمان فقال لهم أتدرون ما الإيمان، ثم فسره لهم ثم أمرهم بحفظ ما أخبرهم به وأمرهم أن يخبروا من وراءهم بما أمرهم به. وهذا التأكيد في هذا الحديث مثل تأكيده على أهمية العلم، وحق الله على العباد كما روى البخاري في صحيحه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال بينا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل فقال يا معاذ قلت لبيك رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ قلت لبيك رسول الله وسعديك، قال هل تدري ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً... الحديث"[٢]. وهذه الطريقة العلمية المعتمدة على التكرار لحفز الانتباه لدى السامع لكي يتلقى العلم في تيقظ كامل تدل على أهمية العلم بحق الله وأنه العبادة الخالصة من الشرك، وهذا يستلزم أن يكون العبد على بصيرة بحقيقة العبادة وحقيقة الشرك حتى يستطيع أن يقوم بحق الله كما أراده الله، ولهذا ربط رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفقه في الدين والخير فقال صلى الله عليه وسلم: " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[٣]، قال ابن حجر: ومفهوم الحيث أن من لم يتفقه في الدين أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حرم الخير[٤].

قلت ومن أعظم الفقه الفقه بما يستحقه الله من كمال وما ينزه عنه من نقائص وما يجب له من عبودية وما يناقض ذلك من عبادة الطواغيت، ولأجل ذلك حاز رسولنا صلى الله عليه وسلم أعلاه كما قال صلى الله عليه وسلم: "إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا"[٥].

إن الجهل بحقائق المسميات العقدية وغيرها من أحكام الشريعة سبب للضلال كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض

---

(١) الفتح ١/ ١٢٢.
(٢) صحيح البخاري ٧/ ٦٨.
(٣) صحيح البخاري ١/ ٢٥.
(٤) الفتح ١/ ١٥١.
(٥) صحيح البخاري ١/ ١٠.

العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"[١].

وقد عاب الله أقواماً يغلب عليهم الجهل فقال سبحانه (الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[٢]، وقال جل ذكره (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ)[٣]. ولا شك أن الجاهل بحقائق المسميات العقدية لا يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله وهو أعمى عن فهمها والعمل بها.

والجهل بالحقائق العقدية أوقع بني إسرائيل في طلب ما لا يليق بالله كما قال سبحانه (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[٤].

وأوقع كذلك بعض الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى غزوة حنين كما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي واقد الليثي أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قلتم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة"[٥].

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٤.

(٢) التوبة: ٩٧.

(٣) الرعد: ١٩.

(٤) الأعراف: ١٣٨.

(٥) المسند ٥/ ٢١٨، والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي ٢/ ٢٣٥، وقال الترمذي عنه حسن صحيح، وكذلك صححه الدوسري في النهج السديد وذكر من خرجوه، انظر النهج ص٦٤.

ولرفع هذه الجهالة نرى أن الله سبحانه في كتابه الكريم يكرر الأمر بالعلم بصفاته وأسمائه كقوله تعالى (وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[١]، وقوله سبحانه (وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[٢]، وقوله تبارك وتعالى (وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)[٣].

وأمثال هذه الآيات في القرآن الكريم كثيرة جداً، ومما يزيد هذا الأمر وضوحاً قصة جبريل عليه السلام التي فيها إيضاح حقائق عقدية مهمة هي حقيقة الإيمان والإسلام والإحسان وكيف أن جبريل عليه السلام وضح تلك الحقائق عن طريق السؤال والتصديق بطريقة علمية معينة ترسخ المعاني في الأذهان، فقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال "بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا، قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال صدقت: قال فأخبرني عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال فأخبرني عن أماراتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال ثم انطلق فلبثت ملياً ثم قال لي يا عمر أتدري من السائل، قلت الله ورسوله أعلم، قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم"[٤].

وقصة عدي بن حاتم رضي الله عنه التي فيها إيضاح جانب مهم من جوانب العبادة قال: "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب قال فسمعته يقول (اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ)[٥]، قال قلت يا رسول الله إنهم لم يكونوا

---

(١) البقرة: ٢٦٠.
(٢) البقرة: ٢٣١.
(٣) البقرة: ٢٣٥.
(٤) مسلم مع النووي ١/ ١٥٧.
(٥) التوبة: ٣١.

يعبدونهم، قال أجل ولكن يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه فتلك عبادتهم لهم".[1]

فإن الرسول صلى الله عليه بيّن لعدي شمول العبادة لمثل هذه الحالة وهي المتابعة في التحليل والتحريم والذي تصرف له العبادة إنما هو الرب وحده، ولذا جاز في الآية أن يطلق على الأحبار والرهبان بأنهم أرباب للذين يصرفون لهم الطاعة ويتابعونهم في تشريعاتهم التي لم يأذن الله بها.

إن حقائق المسميات العقدية المأمور بها كالإيمان والإسلام والدين والعبادة والتقوى والبر والمنهي عنها كالكفر والشرك والنفاق والطاغوت والفسق والظلم يمكن تحديد مدلولاتها عن طريق العلم العميق والفهم الصحيح لنصوص الكتاب والسنة فإن الكتاب والسنة قد حوت كل خير، يقول ابن تيمية "ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم... فاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بين الرسول صلى الله عليه وسلم ما يراد بها في كلام الله ورسوله، وكذلك لفظ الخمر وغيرها ومن هناك يعرف معناها، فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل منه.

وأما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذاك من جنس علم البيان وتعليل الأحكام هو زيادة في العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن، لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا. واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر هي أعظم من هذا كله، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد بيّن المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلا الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك، فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله فإنه شاف كاف[2].

ولإدراك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الحقيقة العظيمة كان اهتمامهم بجمع القرآن وجمع السنة اهتماماً عظيماً لأن من حفظ نصوصهما وعرف تفسيرهما حاز العلم كله، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا

---

(١) سنن البيهقي ١٠/ ١١٦، والحيث ذكره الدوسري في النهج برقم ٩٢، وذكر من خرجه ومن ضعفه، وذكر أن الشيخ الألباني حسنه في غاية المرام (٦).

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨٦.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)[١]، حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر في حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما[٢].

وروى البخاري بسنده أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في صحيفة أو مصحف أن يحرق[٣].

وهذا الإجماع من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين على الاهتمام بكتاب الله وحفظه وجمعه وإشاعة العلم به في شتى الأمصار مما

---

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٩٨.

(٣) المصدر السابق.

حفظ الله به هذا الكتاب المشتمل على كل خير، وهذا الإجماع يصلح دليلاً لنا على أهمية العلم بحقائق المسميات العقدية فإنها من أهم ما يوجد في الكتاب العزيز.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتعلمون السنة ويحفظونها ويعلمونها غيرهم، وتلقى التابعون السنة من الصحابة.

وفي عهد عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم[1] "انظر ما كان من حديث رسول الله فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء"[2]، قال ابن حجر يستفاد منه ابتداء تدوين الحديث النبوي، وكانوا قبل ذلك يعتمدون على الحفظ فلما خاف عمر بن عبد العزيز وكان على رأس المائة الأولى من ذهاب العلم بموت العلماء رأى أن في تدوينه ضبطاً له وإبقاء، وقد روى أبو نعيم في تاريخ أصبهان هذه القصة بلفظ كتب عمر بن عبد العزيز إلى الآفاق، انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه[3].

وقول ابن حجر السابق وكانوا قبل ذلك يعتمدون على الحفظ إنما هو في الأعم الأغلب وإلا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بكتابة خطبته عام فتح مكة لرجل من أهل اليمن، طلب ذلك وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه صحيفة قد كتب فيها العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر[4]. فكتابة السنة من وسائل حفظ العلم الشرعي وطلبه الذي فرضه الله على العباد كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[5] ويدخل فيه دخولاً أولياً العلم بالعقيدة وبمعاني ألفاظها.

وأختم هذا الفصل بذكر أمثلة لمجهودات موفقة قام بها بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إيضاح حقائق عقدية التبس أمرها على بعض الناس:

المثال الأول:

---

(١) تابعي فقيه، استعمله عمر بن عبد العزيز على إمرة المدينة وقضائها، ولهذا كتب إليه ولا يعرف له اسم سوى أبي بكر، انظر الفتح ١/ ١٧٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) صحيح الباري ١/ ٣٦.

(٥) الحديث صححه الألباني في صحيح ابن ماجه ١/ ٤٤.

التبس على عمر بن الخطاب رضي الله عنه المفهوم من حق لا إله إلا الله الذي يعصم به الدم، ولكن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كشف هذا اللبس لعمر وبين له أن النطق بلا إله إلا الله إلا الله لا يعصم الدم لمن منع حق هذه الكلمة، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنها قال لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، قال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها، قال عمر فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[1].

فهذه القضية الكبيرة المتعلقة بحق لا إله إلا الله ومتى يعصم بها الدم التي أشكلت على عمر بن الخطاب في أول الأمر اجتهد أبو بكر الصديق في استنباط حكمها عن طريق النظر، وكان استنباطاً موفقاً اقتنع به عمر بن الخطاب لما فيه من العلم المتين، وهذا الاستنباط وافق نص الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لم يستحضره أبو بكر ولا عمر عند حصول المناظرة. يقول ابن حجر "قوله أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اله" كذا ساقه الأكثر، وفي رواية طارق عند مسلم "من وحد الله وكفر بما يعبد من دونه حرم دمه وماله" وأخرجه الطبراني من حديثه كرواية الجمهور، وفي حديث ابن عمر "... حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة" ونحوه في حديث أبي العنبس، وفي حديث أنس عن أبي داود "...حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن يستقبلوا قبلتنا ويأكلوا ذبيحتنا ويصلوا صلاتنا" وفي رواية العلاء بن عبد الرحمن "... حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويؤمنوا بي وبما جئت به"، وقد رواه عبد الرحمن بن يعقوب بلفظ يعم جميع الشريعة حيث قال فيها ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإن مقتضى ذلك أن من جحد شيئاً مما جاء به صلى الله عليه وسلم ودعي إليه فامتنع ونصب القتال به إنه يجب قتاله وقتله إذا أصر"[2]، ويقول ابن كثير عند تفسير قوله تعالى (فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[3].

(١) صحيح البخاري مع الفتح ١٢/ ٢٤٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التوبة: ٥.

ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة التي هي حق الله عز وجل وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج[1]. قلت وقد سار البخاري في صحيحه على هذا الفهم الذي وضحه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فعقد باباً في كتاب الإيمان بعنوان (باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وأورد فيه حديث ابن عمر رضي الله عنهما" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله"[2]. قال ابن حجر ومناسبة الحديث لأبواب الإيمان من جهة أخرى وهي الرد على المرجئة حيث زعموا أن الإيمان لا يحتاج إلى الأعمال[3].

المثال الثاني:

التبس على الخواراج مفهوم الحكم بما أنزل الله فظنوا بجهلهم أن إسناد النظر إلى رجال من أهل الفقه للحكم في قضية ما إنما هو تحكيم للرجال والحكم لا يكون إلا لله، فتصدى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما لهذا الانحراف في الفهم حول مفهوم عقائدي مهم هو الحكم بما أنزل الله وقاما بإيضاحه للناس، ففهم من أراد الله له الخير وضل من ضل، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن عبيد الله بن عياض بن عمرو القاري قال: "جاء عبد الله بن شداد فدخل على عائشة رضي الله عنها ونحن عندها جلوس مرجعه من العراق ليالي قتل علي رضي الله عنه فقال له يا عبد الله بن شداد هل أنت صادقي عما أسألك عنه، تحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم على رضي الله عنه، قال وما لي لا أصدقك، قالت فحدثني عن قصتهم، قال فإن عليا رضي الله عنه لما كاتب معاوية وحكم الحكمان خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس فنزلوا بأرض يقال لها حروراء من جانب الكوفة وإنهم عتبوا عليه فقالوا انسلخت من قميص ألبسكه الله تعالى واسم سماك الله تعالى به، ثم انطلقت فحكمت في دين الله فلا حكم إلا لله تعالى، فلما أن بلغ علياً رضي الله عنه ما عتبوا عليه وفارقوه عليه فأمر مؤذناً فأذن ألا يدخل على أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن، فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس دعا بمصحف إمام عظيم فوضعه بين يديه

(١) ابن كثير ٤/ ٥٤.

(٢) البخاري مع الفتح ١/ ٧٠.

(٣) المصدر السابق.

فجعل يصكه بيده ويقول أيها المصحف حدّث الناس فناداه الناس فقالوا يا أمير المؤمنين ما تسأل عنه إنما هو مداد في ورق ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟ قال أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله يقول الله تعالى في كتابه في امرأة ورجل (وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا)[1]، فأمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم دماً وحرمة من امرأة ورجل، ونقموا علي أن كاتبت معاوية كتب علي بن أبي طالب وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية حين صالح قومه قريشاً فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل لا تكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال كيف نكتب فقال اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتب محمد رسول الله فقال لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك فكتب هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشاً، يقول الله تعالى في كتابه (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)[2]، فبعث إليهم علي عبد الله بن عباس رضي الله عنه فخرجت معه حتى إذا توسطنا عسكرهم قام ابن الكواء يخطب الناس فقال يا حملة القرآن إن هذا عبد الله بن عباس رضي الله عنه فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرِّفه من كتاب الله ما يعرفه به هذا ممن نزل فيه وفي قومه (قوم خصمون) فردوه إلى صاحبه ولا تُواضعوه كتاب الله، فقام خطباؤهم فقالوا والله لنواضعنه كتاب الله فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنه وإن جاء بباطل لنبكتنه بباطله فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب فيهم ابن الكواء حتى أدخلهم على علي الكوفة... الحديث"[3].

إن جهل الخوارج بهذا المفهوم العقائدي "الحكم لله" جعلهم يظنون أن علياً رضي الله عنه حكّم الرجال في دين الله بأهوائهم المصادمة للشرع، ولا شك أن علياً رضي الله عنه ما كان ليقع في هذا وهو يتلو قول الله تعالى (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[4]، وهذا واضح من الكتاب الذي كتب بين علي ومعاوية عند التحكيم إذ جاء فيه "هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان قاضى علي على أهل العراق ومن معهم من شيعتهم والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله وكتابه ونحيي ما أحيا الله ونميت ما أمات الله فما

(١) النساء: ٣٥.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) مسند أحمد ١/ ٨٦، وانظر المستدرك ٢/ ١٥٣.

(٤) المائدة: ٤٤.

وجد الحكمان في كتاب الله وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المتفرقة"[١].

إن علياً رضي الله يسلم أنه لا حكم إلا لله، ولذا لما قام خطيباً فتنادى الخوارج من كل جانب وقالوا لا حكم إلا لله، قال هذه كلمة حق يراد بها باطل[٢]. فالحكم لله كلمة حق قضية عقدية محل إجماع من المسلمين بل الذي لا يسلم بها فهو كافر كما قال عز وجل (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)[٣]، وإنما حكم الله يوقعه موقعه ويطبقه على الناس القضاة الذين فقهوا في دين الله، ولأجل هذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[٤].

والاجتهاد في الحكم يمارسه حتى الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول عليه الصلاة والسلام: إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها"[٥]، أفبعد هذا كيف يريد الخوارج حكماً لله ولا يوقع على المحكومين عن طريق الرجال إنه الجهل بالقرآن والسنة. ولذا كان موقف الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أعظم المواقف حيال بيان ما التبس على الخوارج من حقائق عقدية وأحكام شرعية.

المثال الثالث:

ما التبس على بعض الناس من مفهوم القدر وتصحيح عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لذلك، فقد روى مسلم في صحيحه عن يحيى بن يعمر قال: "كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت أبا

(١) البداية والنهاية ٧/ ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٢٨٢.

(٣) الكهف: ٢٦.

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ١٣/ ٢٦٨.

(٥) المصدر السابق ١٣/ ١٥٢.

عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون[1] العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف[2]، قال فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال حدثني أبي عمر بن الخطاب" فساق ابن عمر حديث جبريل المشهور المتقدم، وفي الحديث عندما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره... الحديث"[3]، فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وضح هذا المفهوم العقائدي المهم وهو مفهوم القدر، وبيّن الدليل على أنه ركن الإيمان وأن من أنكر أحد أركان الإيمان فقد كفر وأن الكافر قد انقطعت الولاية بينه وبين المؤمنين فهو بريء منهم وهم منه براء وأن أعماله لا يستفيد منها مهما عظمت إذا كفر والعياذ بالله.

المثال الرابع:

ما التبس على بعض الناس من حل الخمر للمتقين وتصحيح الصحابة لهذا الفهم الخاطئ، فقد روى ابن حزم بسنده "أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شربوا الخمر بالشام وأن يزيد بن أبي سفيان كتب فيهم إلى عمر فذكر الحديث وفيه أنهم احتجوا على عمر بقول الله تعالى (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ)[4]، فشاور فيهم الناس فقال لعلي ماذا ترى فقال أرى أنهم قد شرّعوا في دين الله ما لم يأذن به فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم فإنهم قد أحلوا ما حرم الله تعالى، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين ثمانين فقد افتروا على الله الكذب، وقد أخبر الله تعالى بحد ما يفتري به بعضنا على بعض"[5]. وقد ورد هذا التأويل عن قدامة بن مظعون عامل عمر على البحرين فأنكر عليه عمر رضي الله عنه هذا التأويل ثم جلده الحد[6]، فهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم قد صححوا للناس هذا الالتباس الذي

(١) يتقفرون العلم: يعني يطلبونه ويجمعونه ويبحثون عن غامضه ويستخرجون خفيه، انظر شرح النووي ١/ ١٥٥.

(٢) أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه.

(٣) صحيح مسلم مع النووي ١/ ١٥٠.

(٤) المائدة: ٩٣.

(٥) المحلى ١١/ ٢٨٧.

(٦) انظر قصته كاملة في السنن للبيهقي ٨/ ٣١٥.

حصل وبينوا لهم بأن تحليل الحرام إنما هو تشريع في دين الله، وأن من بين له حكم الحرام المجمع على تحريمه فأصر على تحليله يكون مرتداً يقام عليه حد الردة.

وهذه الأمثلة لما قام به بعض الصحابة من إيضاح الحقائق العقدية إنما هي غيض من فيض وإلا فكم من موقف أزيلت الشبه فيه من طريق هذا الدين من قبل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولا شك أن هذا من فقههم في الكتاب والسنة الذي تشربت به قلوبهم وورثه عنهم التابعون، يقول التابعي الجليل ابن عون –رحمه الله- ثلاث أحبهن لنفسي ولأخواني: هذه السنة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا عنه، ويدعوا الناس إلا من خير[1].

(١) صحيح البخاري ٨/ ١٣٩.

الفصل الثاني

حقيقة الطاغوت في اللغة والشرع

قال ابن فارس: (طغى) الطاء والغين والحرف المعتل أصل صحيح منقاس، وهو مجاوزة الحد في العصيان، يقال هو طاغ وطغى السيل إذا جاء بماء كثير[1].

وقال ابن منظور: "والطاغوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث وزنه فعلوت أنما هو طيغوت قدمت الياء قبل الغين وهي مفتوحة وقبلها فتحة فقلبت ألفاً وطاغوت وإن جاء على وزن لاهوت فهو مقلوب لأنه من طغى، ولاهوت غير مقلوب لأنه من لاه بمنزلة الرغبوت والرهبوت... وقوله تعالى (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)[2]، قال الليث الطاغوت تاؤها زائدة وهي مشتقة من طغى، وقال أبو إسحاق كل معبود من دون الله عز وجل جبت وطاغوت، وقيل الجبت والطاغوت الكهنة والشياطين، وقيل في بعض التفسير الجبت والطاغوت حييّ بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديان. قال الأزهري وهذا غير خارج عما قال أهل اللغة لأنهم إذا اتبعوا أمرهما فقد أطاعوهما من دون الله، وقال الشعبي وعطاء ومجاهد الجبت السحر والطاغوت الشيطان والكاهن وكل رأس في الضلال، قد يكون واحداً قال الله تعالى (يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ)[3]، وقد يكون جمعاً قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم)[4]، فجمع، قال الليث: إنما أخبر عن الطاغوت بجمع لأنه جنس على حد قوله تعالى (أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ)[5]، وقال الكسائي: الطاغوت واحد وجمع، وقال ابن السكيت: هو مثل الفلك يذكر ويؤنث، قال تعالى (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا)[6]، وقال الأخفش: الطاغوت

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٤١٢.

(٢) النساء: ٥١.

(٣٣) النساء: ٦٠.

(٤) البقرة: ٢٥٧.

(٥) النور: ٣١.

(٦) الزمر: ١٧.

يكون للأصنام، والطاغوت يكون من الجن والإنس، وقال شمر: الطاغوت يكون من الأصنام ويكون من الشياطين[1].

وفي القاموس المحيط (والطاغوت اللات والعزى والكاهن والشيطان وكل رأس ضلال، والأصنام وكل ما عبد من دون الله ومردة أهل الكتاب. والطغوة المكان المرتفع وطغى جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر وأسرف في المعاصي والظلم. والطاغية الجبار والأحمق المتكبر[2]. وما في كتب اللغة الأخرى وكتب غريب الحديث لا يكاد يخرج عما سبق[3].

وقد جاء ذكر الطاغوت في عدد من الآيات قال تعالى (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[4]، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً)[5]، وقال سبحانه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً)[6]، ويقول تبارك وتعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)[7]، وقال سبحانه (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ)[8]، وقال عز وجل (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ

---

(١) لسان العرب ١٥/ ٨.

(٢) ترتيب القاموس المحيط ٣/ ٨٠.

(٣) انظر تهذيب اللغة للأزهري ٨/ ١٦٨، وغريب الحديث للحربي ٢/ ٦٤٢، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣/ ١٢٨.

(٤) البقرة: ٢٥٦-٢٥٧.

(٥) النساء: ٥١.

(٦) النساء: ٦٠.

(٧) النساء: ٧٦.

(٨) المائدة: ٦٠.

فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)[1]، وقال سبحانه (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)[2].

وقد جاء ذكر الطاغوت في عدد من الأحاديث منها:

١- ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "هل تضارون في القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله، قال فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب، قالوا لا يا رسول الله، قال فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت... إلخ".

٢- ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم"[3]، والمراد بالطواغي الطواغيت كما جاء مصرحاً بها في رواية المسند "لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت"[4].

٣- ما رواه البخاري في صحيحه قال: وقال جابر كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها في جهينة واحد وفي أسلم واحد وفي كل حي واحد كهان ينزل عليهم الشيطان، وقال عمر الجبت السحر والطاغوت الشيطان، وقال عكرمة الجبت بلسان الحشة شيطان والطاغوت الكاهن[5].

٤- ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا فرع ولا عتيرة"، والفرع أول النتاج كانوا يذبحونه لطواغيتهم، والعتيرة في رجب. قال ابن حجر وفيه تفسير الفرع والعتيرة وظاهره الرفع... وقال الخطابي أحسب التفسير فيه من قول الزهري قلت –القائل ابن حجر- قد أخرج أبو قرة في السنن الحديث عن عبد المجيد بن أبي داود عن معمر وصرح في روايته أن تفسير الفرع والعتيرة من قول الزهري.

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) الزمر: ١٧.

(٣) مسلم مع النووي ١١/ ١٠٨.

(٤) مسند أحمد ٥/ ٦٢.

(٥) صحيح البخاري ٥/ ١٨٠.

٥- ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن الزهري قال سمعت سعيد بن المسيب قال البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب[١].

٦- ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن الزهري "قال عروة سألت عائشة رضي الله عنها فقلت أرأيت قول الله تعالى (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا)، فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة، قالت بئس ما قلت يا ابن أختي إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جناح عليه أن لا يتطوف بهما ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل فكان من أهلّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك قالوا يا رسول الله إن كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ... الآية)، قالت عاشة رضي الله عنها وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما... الحديث[٢]". قلت الطاغية والطاغوت شيء واحد لأن الطاغوت إنما سمي طاغوتا لطغيانه وتجاوزه حده كما تقدم في اللغة، أو لطغيان الناس فيه وإعطائه ما لا يستحقه من العبادة.

٧- ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لا تقوم الساعة حتى تضطرب آليات نساء دوس على ذي الخلصة" وذي الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية.

٨- ما رواه أبو داود بسنده عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طواغيتهم[٣].

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٣٩٩.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٣/ ٣٩٨.

(٣) سنن ابن ماجة ١/ ٢٤٥، عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢/ ١١٨، وقال الشارح والحديث دليل جواز جعل الكنائس والبيع وأمكنة الأصنام مساجد وكذلك فعل كثير من الصحابة حين فتحوا البلاد وجعلوا متعبداتهم متعبدات للمسلمين وغيروا محاريبها وإنما صنع هذا لانتهاك الكفر وإيذاء الكفار حيث عبدوا غير الله هنا.

٩- ما رواه أحمد في المسند عن ميمونة بنت كردم قالت كنت ردف أبي فسمعته يسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني نذرت أن أنحر ببوانة فقال أبها وثن أم طاغية، فقال لا قال أوف بنذرك"[١].

وبالاطلاع على تفاسير السلف لمعنى الطاغوت في الآيات والأحاديث المتقدمة يظهر اتفاق علماء اللغة مع علماء الشريعة على معنى الطاغوت بل إن أغلب علماء اللغة نقلوا معنى الطاغوت عن علماء الشريعة ولا عجب في هذا لأن كثيراً من السلف الذي فسروا معنى الطاغوت عرب خلص يحتج بأقوالهم في اللغة العربية بلا خلاف، إضافة إلى فقههم في النصوص الشرعية والصحابة رضوان الله عليهم قد تلقوا معاني النصوص الشرعية التي تحتاج إلى بيان من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقاها عنهم التابعون ثم تلقاها علماء الإسلام جيلاً بعد جيل، وهذه جملة من أقوالهم في بيان معنى الطاغوت:

فعن عمر بن الخطاب ومجاهد والشعبي والضحاك وقتادة والسدي أن الطاغوت الشيطان[٢]، وعن أبي العالية ومحمد أنه الساحر، وعن سعيد بن جبير ورفيع وجابر رضي الله عنهم أنه الكاهن[٣].

وفسر الطاغوت بالصنم وسدنة الأصنام ومردة أهل الكتاب وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب[٤]، وفسر الطاغوت بأنه كل ما عُبد من دون الله، قال الإمام مالك: الطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل[٥].. وقد تقدم قول أبي إسحاق الذي نقله الأزهري "كل معبود من دون الله عز وجل جبت وطاغوت". وقال ابن جرير الطبري "والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله فعبد من دونه إما بقهر منه لمن عبده وإما بطاعة ممن عبده له إنساناً كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كائناً ما كان من شيء"[٦].

(١) مسند أحمد ٦/ ٣٦٦.
(٢) تفسير الطبري ٣/ ١٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ...
(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٤.
(٦) تفسير ابن جرير ٣/ ١٣.

وقال عند تفسير قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)[١]، والصواب من القول في تأويل يؤمنون بالجبت والطاغوت أن يقال يصدقون بمعبودين من دون الله يعبدونهما من دون الله ويتخذونهما إلهين وذلك أن الجبت والطاغوت إسمان لكل معظم بعبادة من دون الله أو طاعة أو خضوع له كائناً ما كان ذلك المعظم من حجر أو إنسان أو شيطان، وإذا كان ذلك كذلك وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها كانت معظمة بالعبادة من دون الله فقد كانت جبوتاً وطواغيت، وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله، وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله، وكذلك حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله فكانا جبتين وطاغوتين"[٢].

وقال ابن عطية اختلف المفسرون في معنى الطاغوت، فقال عمر بن الخطاب ومجاهد والشعبي والضحاك وقتادة والسدي الطاغوت الشيطان، وقال ابن سيرين وأبو العالية الطاغوت الساحر، وقال سعيد بن جبير ورفيع وجابر بن عبد الله وابن جريج الطاغوت الكاهن، وبين أن هذه أمثلة في الطاغوت لأن كل واحد منها له طغيان والشيطان أصل ذلك كله.

وقال قوم الطاغوت الأصنام، وقد قال بعض العلماء كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت[٣].

وقال النووي "قال الليث وأبو عبيدة والكسائي وجماهير أهل اللغة الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى، وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي وغيرهم الطاغوت الشيطان، وقيل هو الأصنام"[٤].

وقال ابن القيم "والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله"[١].

---

(١) النساء: ٥١.

(٢) تفسير ابن جرير ٤/ ٨٤.

(٣) المحرر الوجير لابن عطية ٢/ ١٩٨.

(٤) شرح النووي ٣/ ١٨.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب "والطاغوت عام فكل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت"[٢]. وقال في مسائل الباب الأول من كتاب التوحيد: المسألة الثامنة أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله"[٣].

ومما تقدم يتضح أنه لا تعارض بين تفاسير العلماء للطاغوت، وإن اختلفت عباراتهم فإن مردة أهل الكتاب المغيرين لأحكام الله والسحرة والشياطين والكهان والأصنام كلها تدخل تحت مسمى ما عبد من دون الله، ولكن من عادة السلف أنهم يفسرون الشيء أحياناً بصفة من صفاته أو يفسرونه ببعض أنواعه، ولذا فالخلاف الذي يحصل بينهم إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، يقول ابن تيمية "...الصنف الثاني أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه مثل سائل أعجمي سأل عن مسمى لفظ الخبز فأري رغيفاً وقيل له هذا فالإشارة إلى نوع هذا لا إلى هذا الرغيف وحده، مثال ذلك ما نقل في قوله تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)[٤]، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات، فالمقتصدون هم أصحاب اليمين (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ، أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)[٥]، ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل السابق الذي يصلي في أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي في أثنائه والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الإصفرار، أو يقول السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة فإنه ذكر المحسن بالصدقة والظالم يأكل الربا والعادل بالبيع.. فكل قول فيه ذكر نوع دخل في الآية ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له وتنبيهه به على نظيره فإن التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطابق، والعاقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أشير له إلى رغيف فيقال هذا هو الخبز"[٦].

---

(١) إعلام الموقعين ١/ ٥٠.

(٢) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الأول- العقيدة ص٣٧٧.

(٣) فتح المجيد ٣٤.

(٤) فاطر: ٣٢.

(٥) الواقعة: ١٠-١١.

(٦) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص٤٣.

قلت فكذلك تفسير الطاغوت عندما قال بعض السلف إنه الشيطان وقال بعض إنه الكاهن وقال بعض إنه الساحر وقال بعض إنه مردة أهل الكتاب وقال بعض إنه زعماء اليهود الذين يتحاكم إليهم من قبل بعض الناس في المدينة، إنما أراد السلف التفسير بالمثال وبعض الأنواع ليستدل به على المعنى العام، وربما يكون النص على بعض الأنواع من الطواغيت إنما هو لخطورتها وكونها رأس في الضلال، ويبدو أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فهم هذا المعنى عندما عدد رؤوس الطواغيت فقال "والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة:

الأول: الشيطان الداعي إلى عبادة غير الله والدليل قوله تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)[1].

الثاني: الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى والدليل قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً)[2].

الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله والدليل قوله تعالى (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[3].

الرابع: الذي يدعي علم الغيب من دون الله والدليل قوله تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً)[4]، وقال تعالى (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)[5].

الخامس: الذي يُعبد من دون الله وهو راض بالعبادة والدليل قوله تعالى (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)[6]"[7].

(١) يس: ٦٠.

(٢) النساء: ٦٠.

(٣) المائدة: ٤٤.

(٤) الجن: ٢٦-٢٧.

(٥) الأنعام: ٥٩.

(٦) الأنبياء: ٢٩.

(٧) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الأول- العقيدة ص٣٣٧.

وإذا تبين أن تفسير العلماء للطاغوت ببعض أنواعه لا يدل على الحصر وإنما من باب التفسير بالمثال أو باب التنصيص على بعض أفراد العام لمعنى خاص فيه فقد صرح جمع من العلماء بتفسير الطاغوت بالتفسير العام وهو أنه كل ما عبد من دون الله تعالى، وقد تقدم التفسير بالعموم عن الإمام مالك وعن أبي إسحاق وعن شيخ المفسرين ابن جرير الطبري وعن ابن عطية وعن النووي وعن ابن القيم وعن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ومما يدل على أن مسمى الطاغوت شامل لكل ما عبد من دون الله قوله تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ)[١]، فإن الرسل جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم قد اتفقوا على دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله وتحذيرهم من صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله وأمروهم باجتناب ذلك، فإذا كان الشيء الذي اتفق الرسل على الأمر باجتنابه هو الطاغوت دل على أن ما عبد من دون الله هو الطاغوت لأنه هو الشيء الذي اتفق الرسل على الأمر باجتنابه ولو كان مسمى الطاغوت خاصاً ببعض المعبودات من دون الله لكان هناك معبودات من دون الله لم يأمر الرسل صلوات الله عليهم باجتنابها والحال أن الرسل قد اتفقوا على التحذير من جميع المعبودات من دون الله وأمروا باجتنابها، والأدلة على هذا لا تكاد تحصى ومنها قوله تبارك وتعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[٢]، وقوله عز وجل (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)[٣]، وقوله سبحانه (يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ)[٤]، وقال سبحانه (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ، بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)[٥].

فكل هذه الآيات الكريمات تدل على أن الرسل اتفقوا على التحذير من اتخاذ آلهة مع الله وأنه يجب على العبد أن يجتنب كل آلهة تعبد من دون الله، ومنطوق آية النحل (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ)[٦] تدل على أنهم اتفقوا على التحذير من الطاغوت وأمروا باجتنابه فدل على أن القضية المتفق على التحذير منها واحدة

(١) النحل: ٣٦.

(٢) الأنبياء ٢٥.

(٣) الزخرف: ٤٥.

(٤) النحل: ٢.

(٥) الصافات: ٣٥-٣٧.

(٦) النحل: ٣٦.

وهذه القضية تسمى عبادة غير الله وتسمى الطاغوت، فهما اسمان لمسمى واحد، والحقيقة واحدة وتسمى أيضاً الشرك فمن عبد غير الله يكون مشركاً في العبادة ويكون معبوده الذي أشرك به طاغوتاً فهو عابد للطاغوت كما يقول سبحانه (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ، قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ، وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ، فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ)[1].

فهذه الآيات عامة في كل الأمم التي لم تخلص العبادة لله بدليل قوله تعالى (مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) فذكر المرسلين بصيغة الجمع فدل على أن من لم يستجب للمرسلين يكون قد اتخذ شركاء، وهذا الاتخاذ هو عبادة غير الله وهو عبادة الطاغوت وهو الشرك بالله.

ومثل الآيات السابقة قوله تعالى (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ)[2].

فهذا حشر لأهل الأرض كلهم من إنس وجن والناس فريقان مسلم ومشرك وعابد الطاغوت داخل تحت اسم المشرك قطعاً وهو الذي يوجه إليه الخطاب فيقال مكانكم أنتم وشركاؤكم[3].

وما دل عليه القرآن الكريم من أن مسمى الطاغوت شامل لكل ما عبد من دون الله وأن الأنبياء جميعاً جاءوا بالتحذير من عبادة الطاغوت وجاءوا بإخلاص العبادة لله دلت عليه السنة الصحيحة أيضاً كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد[4]. قال ابن حجر والأنبياء أخوة لعلات والعلات بفتح المهملة الضرائر وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها والعلل الشرب بعد الشرب وأولاد العلات الأخوة من الأب وأمهاتهم شتى، وقد بينه في رواية عبد الرحمن

(١) القصص: ٦٢-٦٦.

(٢) يونس: ٢٨-٢٩.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠٠.

(٤) صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٣٥٤.

فقال أمهاتهم شتى ودينهم واحد وهو من باب التفسير كقوله تعالى (إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً) ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل المراد أن أزمنتهم مختلفة"[١].

وإذا كان الأنبياء دينهم واحد وهو التوحيد دل على أنهم حذروا من ضده وهو الشرك وقد تقدم أن الأنبياء حذروا من عبادة الطاغوت فدل على أن عبادة الطاغوت هي الشرك وهي عبادة غير الله أيا كان نوع المعبود، وهذا يبينه أن الله قصر البشرى على من اجتنب عبادة الطاغوت كما في قوله تعالى (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)[٢]، وبين أن المشركين لا يغفر لهم على الإطلاق كما في قوله سبحانه (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ)[٣]، وأنه قدم عليهم الجنة كما في قوله تعالى (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)[٤]، فدل على أن من لم يجتنب عبادة الطاغوت لا بشرى له ولا يكون إلا مشركاً وهذا شامل لكل أنواع الشرك الأكبر فإن أصحابه لا بشرى لهم، والبشرى شاملة لكل من اجتنب عبادة الطاغوت فدل على أن اجتناب عبادة الطاغوت تساوي اجتناب الشرك وإلا لزم أن يكون بعض الناس يجتنب الطاغوت ولا يجتنب بعض صور الشرك وتحصل له البشرى وهو واقع في الشرك، وهذا مصادم لنص القرآن كما تقدم فاتضح أن عبادة الطاغوت والشرك متساويان في الحقيقة.

وإذا تبين لنا من الأدلة السابقة أن مسمى الطاغوت شامل لكل ما عُبد من دون الله فما وجه عطفه على غيره من المعبودات في بعض النصوص الشرعية كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة "... يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة... الحديث"[٥].

(١) المصدر السابق.
(٢) الزمر: ١٧.
(٣) النساء: ٤٨.
(٤) المائدة: ٧٢.
(٥) صحيح البخاري ٨/ ١٧٩.

وما وجه عطفه على غيره في كلام بعض أهل العلم كما عقد البخاري في صحيحه باباً بعنوان (باب لا يحلف باللات والعزى ولا بالطواغيت)[١] والذي يظهر لي والله أعلم أن هذا العطف في حديث أبي هريرة المقدم إنما هو من باب عطف العام على الخاص لغرض أراده المتكلم من إفراده الخاص بالذكر قبل ذكر العام، وهذا أسلوب بلاغي فصيح جاء في القرآن الكريم كما في قوله سبحانه (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)[٢]، وقوله عز وجل (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)[٣].

وقد أشار إلى غرض التنصيص على ذكر الشمس والقمر في حديث أبي هريرة مع دخولهما في مسمى ما عبد من دون الله، ابن أبي جمرة فقال "أنه لعظم خلقهما"[٤]، ولهذا الغرض نص عليهما في قوله سبحانه (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)[٥]، مع أن السجود لا يجوز لأحد من الخلق، وأما عطف البخاري كلمة الطواغيت على اللات والعزى مع أن اللات والعزى داخلة في مسمى الطواغيت فذلك لصناعة حديثية معيّنة يعرفها من تأمل تبويبات البخاري في صحيحه وذلك أن البخاري أورد تحت هذه الترجمة حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من حلف فقال في حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله... الحديث" فليس في الحديث لفظ الطواغيت وإنما جاء النهي عن الحلف بالطواغيت في صحيح مسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم"[٦]. فاحتاج البخاري إلى أن يعطف كلمة الطواغيت وهي عامة على اللات والعزى وهي خاصة وداخلة في مسمى الطواغيت للإشارة إلى الحديث الذي صح في النهي عن الحلف بالطواغيت، ولكنه ليس على شرطه، ومن عادته رحمه الله أنه يترجم بلفظ يومئ إلى معنى حديث لم يصح على شرطه، أو يأتي بلفظ الحديث الذي لم يصح على شرطه صريحاً في الترجمة، ويورد في الباب ما يؤيد معناه[٧].

---

(١) انظر الصحيح مع الفتح ١١/ ٤٦٧.

(٢) نوح: ٢٨.

(٣) الحجر: ٨٧.

(٤) انظر الفتح ١١/ ٣٨٩.

(٥) فصلت: ٣٧.

(٦) مسلم مع النووي ١١/ ١٠٨.

(٧) انظر مقدمة المتواري على تراجم أبواب البخاري، ص٩.

ولا شك أن الحلف بالطواغيت هو كالحلف باللات والعزى وإنما خصت اللات والعزى بالذكر في حديث أبي هريرة المتقدم لشهرتها وكثرة من يعظمها من مشركي العرب، ولذا أفردت بالذكر أيضاً في قوله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى، إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى)[1].

قال ابن كثير "وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها، قال ابن إسحاق في السيرة "وكانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة بها سدنة وحجاب وتهدي لها كما يهدى للكعبة وتطوف كطوفانها بها وتنحر عندها وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده فكانت لقريش وبني كنانة العزى بنخلة، وكانت سدنتها وحجابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم.. وكانت اللات لثقيف بالطائف وكان سدنتها وحجابها بني معتب.. وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد.. وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة.. وكانت فلس لطيء ولمن يليها بجبلي طيء... وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام... وكانت رُضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب... وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد"[2].

وإذا تقرر لدينا أن مسمى الطاغوت عام شامل لكل ما عبد من دون الله فهل يدخل تحت هذا المسمى من عُبد من الملائكة والأنبياء والصالحين أم لا يدخلون؟؟ قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب "والطاغوت عام فكل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت"[3] فهو قد جعل الرضا بالعبادة قيداً في إطلاق اسم الطاغوت على المعبود من دون الله، وقد تابعه على هذا اللجنة الدائمة للبشارات العلمية بالسعودية المكونة من الشيخ عبد العزيز بن باز والشيخ عبد الرزاق عفيفي والشيخ عبد الله بن غديان والشيخ عبد الله بن قعود حيث وجه إليهم سؤال هذا نصه (هل نبي الله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام يعتبر طاغوتاً لأنه عبد من دون الله؟) فكان الجواب (ليس كل من عبد من دون الله يعتبر طاغوتاً إنما يعتبر طاغوتاً من عبد من دون الله

(١) النجم: ١٩-٢٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ... وسنداد منازل لإياد أسفل سواد الكوفة.

(٣) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قسم العقيدة ص٣٧٧.

وهو راض أو دعا إلى عبادة نفسه، وعيسى بن مريم عليه السلام لم يرض أن يكون معبوداً بل أنكر ذلك ودعا إلى عبادة الله وحده...)[١].

ولكن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مسائل الباب الأول من كتاب التوحيد جعل الطاغوت عاماً في كل ما عبد من دون الله ولم يقيده بمن رضي بالعبادة، وكذلك ما نقل عن الإمام مالك وأبي إسحاق وابن جرير الطبري وابن القيم إنما نقل بصيغة العموم من غير تقييد بمن رضي بالعبادة كما تقدم في أول هذا الفصل.

قلت ولا شك أن الملائكة والأنبياء والصالحين ليسوا سبباً في طغيان الكفار ولا في عبادتهم لهم وإنما السبب في ذلك هو تلاعب الشياطين بالمشركين كما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غُطيف بالجوف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمذان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسماهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت"[٢].

ولأن الملاكة والأنبياء والصالحين لا تأثير لهم في إضلال المشركين استثناهم الله من الطواغيت الذين يدخلون النار مع عابديهم فقال سبحانه (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ، لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ، إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ، لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)[٣].

قال ابن كثير "وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله في كتاب السيرة وجلس رسول الله عليه وسلم فيما بلغني يوماً مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المسجد غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه وتلا عليه

(١) فتاوى اللجنة ١/ ٥٤٤.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٧٣، وفي رواية بالجرف عند سبأ.

(٣) الأنبياء: ٩٨-١٠٣.

وعليهم (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ)[1] إلى قوله (وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ)، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعري والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعري أما والله لو واجهته لخصمته فسلوا محمداً كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد عيسى بن مريم؟؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعري ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته وأنزل الله (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ، لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ)[2] أي عيسى وعزير ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله، ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)[3] إلى قوله (وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)[4].

ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ، وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ)...[5] "[6].

ومما تقدم يظهر أنه لا ينبغي أن يطلق على الملائكة والأنبياء والصالحين بأنهم طواغيت إذا عبدوا من دون الله لأن الطغيان ومجاوزة الحد واقعة من عابديهم لا منهم فالعابدون لهم هم الذين رفعوهم فوق منزلة المخلوقين وصرفوا لهم ما لا يصرف إلا لله فاعتقاد العابدين هذا هو الطاغوت والذي أمرهم به من شياطين الإنس والجن هم الطواغيت الحقيقية فيقال مثلاً إن النصارى جعلوا عيسى طاغوتاً لهم واليهود جعلوا عزيراً طاغوتاً لهم والمشركون جعلوا

(١) الأنبياء: ١٨.
(٢) الأنبياء: ١٠١-١٠٢.
(٣) الأنبياء: ٢٦-٢٧.
(٤) الأنبياء: ٢٩.
(٥) الزخرف: ٥٧-٥٩.
(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ٣٧٥.

الصالحين والملائكة طواغيت لهم، كما يقال أنهم جعلوها أرباباً وآلهة وهم في حقيقة الأمر ليسوا طواغيت ولا أرباباً ولا آلهة، وإلى هذا المعنى أشار ابن عطية في تفسيره فقال "وقد قال بعض العلماء كل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت، وهذه تسمية صحيحة في كل معبود يرضى ذلك كفرعون ونمرود ونحوه، وأما من لا يرضى ذلك كعزير وعيسى عليهما السلام ومن لا يفعل كالأوثان فسميت طاغوتاً في حق العبدة وذلك مجاز إذ هي بسبب الطاغوت الذي يأمر بذلك ويحسنه وهو الشيطان"[١].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: "كل من عبد شيئاً من دون الله بأي أنواع العبادة كالدعاء والاستغاثة فإنما عبد الطاغوت فإن كان المعبود صالحاً كانت عبادة العابد له واقعة على الشيطان الذي أمره بعبادته وزينها له كما قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)... وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه كالطواغيت أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً كاللات والعزى ومناة وغير ذلك مما كان يتخذه المشركون لهم أصناماً على صور الصالحين والملائكة أو غير ذلك فهي من الطاغوت الذي أمر الله عباده أن يكفروا بعبادته ويتبرأوا منه ومن عبادة كل معبود سوى الله كائناً من كان"[٢].

ويقول ابن كثير في تفسير آية سبأ التي احتج بها الشيخ عبد الرحمن آنفاً (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً)[٣]، يخبر تعالى أنه يقرّع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة (أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)[٤] أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم كما قال في سورة الفرقان (أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)[٥]، وكما يقول لعيسى (أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)[٦]، وهكذا تقول الملائكة سبحانك أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله (أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم) أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء (بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) يعنون

(١) المحرر الوجيز ٢/ ١٦٨.
(٢) قرة عيون الموحدين ٢٣١.
(٣) سبأ: ٤٠.
(٤) سبأ: ٤٠.
(٥) الفرقان: ١٧.
(٦) المائدة: ١١٦.

الشياطين لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم أكثرهم بهم مؤمنون كما قال تعالى (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً)[١].

وهذا الذي تقدم لا يخرج عبّاد الأنبياء والصالحين والملائكة من مسمى عبدة الطاغوت لأن من أشرك مع الله غيره من الأنبياء والصالحين فهو مساو لمن أشرك مع الله غيره من الأحجار والأشجار والملحدين، فعبادة الكافر كلها عبادة للطاغوت لأن عبادة الطاغوت هي صرف شيء من أنواع العبادة لغير مستحقها وهو الله تبارك وتعالى، والمعنى في المعبودات واحد وإن كان بعضها له منزلة عند الله فإن هذه المنزلة لا ترشحه لأن يعبد من دون الله ولا تشفع لمن عبده في إزالة اسم الشرك عنه ولا إزالة اسم عابد الطاغوت عنه وإن كان المعبود لا يتأثر بهذه العبادة ولا ينقص قدره عند ربه بسبب عبادة من عبده وهو غير راض بذلك، وهذا المعنى يؤيده حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "اللهم لا تجعل قبري وثناً لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[٢]، فقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ليس في حقيقة الأمر وثناً ولكن عندما يغلوا فيه أهل الغلو ويطوفون به ويقدمون له النذور ويمرغون خدودهم عليه ويسجدون عليه يكون لهم وثناً من هذه الحيثية.

ولهذا بوب الشيخ محمد بن عبد الوهاب باباً في كتاب التوحيد بعنوان (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله) فلا يطلق على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم مسمى الوثن كما لا يطلق على الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعبد ويستغاث به في الشدائد بعد موته مسمى الطاغوت ولكن مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم لا ترفع عن عابده ولا عن عابد قبره مسمى المشرك عابد الوثن وعابد الطاغوت. والعبادة في حقيقة الحال تقع على الشيطان الذي أمر بها فيقال لعابد قبر الرسول صلى الله عليه وسلم أو لعابده لماذا تتخذ قبر الرسول صلى الله عليه وسلم طاغوتاً لك ولماذا تتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم طاغوتاً لك تعبده من دون الله، كما يقال للنصارى لماذا تتخذون عيسى رباً لكم والحال أنه ليس عيسى رباً ولا الرسول صلى الله عليه وسلم طاغوتاً ولا قبره وثناً وإنما الكفار يزعمون ذلك، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "أجعلتني مع الله عدلاً" –وفي لفظ نداً– قال ذلك لمن قال له ما شاء الله وشئت[٣]. فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس نداً لله ولا عدلاً ولكن الرجل جعله كذلك في خطابه فأنكر عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم ند لله وعدل له، ويقال إن

---

(١) النساء: ١١٧. انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٥١١.

(٢) مسند أحمد ٢/ ٢٤٦، والحديث صححه الدوسري في النهج السديد ص١١٥.

(٣) الحديث صححه الألباني برقم ١٣٩ في الصحيحة وذكر من خرجوه، وانظر مسند أحمد.

بعض الناس جعلوه نداً وعدلاً وهكذا يقال لمن عبد الصالحين والملائكة والأنبياء إنهم جعلوهم طواغيت يعبدونهم من دون الله ولا يضر الأنبياء والصالحين والملائكة هذا الفعل من الكفار ولا ينقص من قدرهم ولا يُبغض الأنبياء والصالحون والملائكة ولا يُتبرأ منهم لأنهم قد عُبدوا من دون الله وإنما تنكر عبادتهم من دون الله وتبغض وتجحد وتستر وتجتنب لأن العبادة حق خالص لله سبحانه لا يشركه فيها أحد من الخلق، وعبادة الأنبياء وغيرهم من الصالحين من دون الله من قبل بعض الناس هي الطاغوت التي يجب أن يكفر به لا بهم.

ومما تقدم من العرض عن معنى الطاغوت في اللغة والشرع يتضح أن مسمى الطاغوت يشمل عبادة جميع المعبودات من دون الله، ويمكن أن تقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- القسم الأول الجمادات التي لا روح فيها من الأشجار والأحجار وما شابهها، وقد تقدم في الأحاديث تسمية مناة وذي الخلصة باسم الطاغوت.

٢- القسم الثاني ما فيه حياة كالأنس والجن والشياطين والحيوانات، وقد تقدم تسمية الشيطان والكهان ومردة أهل الكتاب بمسمى الطاغوت.

٣- القسم الثالث المسائل المعنوية كهوى النفس ورغباتها والأعراف والتقاليد المقدسة والقواعد المصونة المحترمة عند أصحابها المصادمة لدين الله والدساتير الملزمة المحللة والمحرمة ونحو ذلك من القضايا المعنوية التي لها سلطان على النفوس بحيث تخضع لها القلوب وتجلها وتعظمها وتخضع لها حالها وتسير على منهجها.

قال سبحانه (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)[١]. فهذا هوى غلاب لا يخالفه صاحبه بل يخضع له ويسير على ما يريد فكان معبوداً له اتخذه صاحبه إلهاً من دون الله، ولأجل هذا لما رأى ابن القيم أن الجهمية اعتمدوا مقولات باطلة تصرفهم عن الحق وهم يخضعون نصوص الوحي لها ويعطونها صفة القداسة التي تحمي جانبها من الخدش فلا يشكون في صحتها بل يجعلونها ميزاناً يزنون بها نصوص الوحي سمى تلك المقولات طواغيت فهو يقول "كسر الطاغوت الثاني وهو قولهم إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل"[٢]، ويقول "فصل في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية لتعطيل حقائق الأسماء

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) مختصر الصواعق ١/ ١٢٩.

والصفات وهو طاغوت المجاز"[١]. ويقول "فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته"[٢]. ويقول سليمان بن سحمان[٣] "الطاغوت ثلاثة أنواع طاغوت حكم وطاغوت عبادة وطاغوت طاعة ومتابعة"[٤].

ومن القسم الثالث الذي هو المسائل المعنوية والأعراف والتقاليد والقوانين الوضعية المتبعة والمعظمة والمحبوبة من دون الله فكرة الوطنية التي تجعل أصحاب الوطن الواحد يتناصرون فيما بينهم بسبب اشتراكهم في الوطن فحسب، فيحب أحدهم أبناء وطنه وينصرهم على غيرهم حتى لو كان غيرهم من المسلمين وأبناء وطنه من الكافرين، بل ويرفض تحكيم الشريعة الإسلامية حفاظاً على مشاعر الكافرين المشاركين له في الوطن، ويرى أن رابطة الوطن أقوى وأعظم من رابطة الدين فيقول الدين لله والوطن للجميع. ومثل هذه الفكرة فكرة القومية التي تجعل الرابطة بين الأفراد هي الجنس أو اللغة فعلى أساسها يتم التناصر ويتم الولاء فيحارب القوميون غيرهم ولو كانوا مسلمين ويتركون التحاكم إلى الشريعة الإسلامية لئلا يزعجوا المشاركين لهم في القومية من الكافرين، ولا شك أن فكرة الوطنية والقومية بالمفهومات السابقة طاغوت من الطواغيت فهي داخلة في مسمى الطاغوت لأنها معبودة من دون الله بسبب الخضوع لها والمحبة لها ولأهلها وترك الدين لأجلها على حد قول شاعرهم:

هبوني عيداً يجعل العرب أمة ... وسيروا بجثماني على ديني برهم
سلام على كفر يوحد بيننا ... وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

---

(١) المصدر السابق ٢/٢.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ٥٠.

(٣) من علماء الجزيرة العربية تتلمذ على الشيخ حمد بن عتيق والشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وله مؤلفات مفيدة في العقيدة السلفية تربو على خمسة عشر مؤلفاً، توفي في ١٣٤٩ هـ

(٤) الدرر السنية ٨/ ٢٧٢.

وقول ثائرهم "العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين لأنها وحدت قبل الإسلام وقبل المسيحية[1]. ولا شك أن القومية بهذا الفهم من أكبر الطواغيت[2] ومثلها الدساتير المكتوبة التي تحرم ما أحل الله وتحل ما حرم الله ويخضع لها أصحابها ويتحاكمون إليها عند التنازع فإن هذه الدساتير هي مقولات بشرية مثل مقولة الكهان أو كعب بن الأشرف أو حييّ بن أخطب التي وصف الله المتحاكمين إليها بأنهم يتحاكمون إلى الطاغوت وأن إيمانهم من باب الزعم وليس من باب الحقيقة كما قال سبحانه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً)[3].

وكذلك الذين يقدسون الأعراف والتقاليد ومقولات مشائخ القبائل ومقولات مشائخ الطرق ويرونها أصدق قيلاً من القرآن الكريم والحديث الصحيح، ويرون أن الرد إليها عند التنازع أفضل من الرد إلى الكتاب العزيز والسنة المشرفة فإنهم في الحقيقة إنما يؤمنون بالطاغوت وما يقدسونه من أعراف وتقاليد ومقولات إنما هي داخلة في مسمى الطاغوت لا ريب لأن كل ما يضاد لا إله إلا الله من الكفر والشرك إنما هو طاغوت ولا يسلم للعبد إيمان حتى يكفر بكل ما يضاد لا إله إلا الله من صور الشرك والكفر سواء أكانت هذه الصور شركاً بأشخاص أو أحجار أو مقولات لفظية أو إرادات قلبية كما تقدم في الأقسام الثلاثة قال تعالى (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[4].

فلو أن صور الشرك إذا كانت بإرادات وأهواء واتباع مقولات ودساتير مدونة ومعظمة عند أصحابها لا تدخل في مسمى الطاغوت وقصر معنى الطاغوت على المعبودات من الجمادات والأحياء لجاز أن يقول أن المشركين الذين شركهم من هذه الحيثية إذا آمنوا بالله يعتبرون مستمسكين بالعروة الوثقى وهي شهادة أن لا إله إلا الله ويكونون من أهل الإسلام، وهذا مخالف للإجماع لأنه لا يجتمع الإيمان مع صور الشرك الأكبر مطلقاً[5]، فاتضح أن صور الشرك الأكبر كلها داخلة في مسمى الطاغوت حتى تسلم دلالة الآية الكريمة. يقول ابن تيمية "... بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعادتهم التي لم ينزلها الله سبحانه

---

(١) العرب والإسلام للندوي ص١١.

(٢) راجع نقد القومية العربية لابن باز.

(٣) النساء: ٦٠.

(٤) البقرة: ٢٥٦.

(٥) انظر نواقض الإسلام للشيخ محمد بن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد ص٣٧.

وتعالى كسوالف البادية وكأوامر المطاعين فيهم، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر"[١].

ويقول ابن كثير عند تفسير قوله تعالى (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[٢] "ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم اليساق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه وصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكّم سواه في قليل ولا كثير"[٣].

ولا شك أن من أشار إليهم ابن تيمية وابن كثير قد وقعوا في الشرك الأكبر وهو عبادة الطاغوت وإن كان طاغوتهم ليس من الجمادات ولا من الأحياء وإنما هو من القسم الثالث الذي هو المقولات والأهواء، والأعراف والتقاليد والدساتير وما شابه ذلك، والمعنى واحد في جميع الأقسام الثلاثة وهو عبادة غير الله أو عبادة الطاغوت أو الشرك بالله كما تقدم.

(١) منهاج السنة ٥/ ١٣٠.

(٢) المائدة: ٥٠.

(٣) ابن كثير ٧/ ١٢٢.

الفصل الثالث

حقيقة الكفر بالطاغوت في اللغة والشرع

قال ابن فارس "الكاف والفاء والراء أصل صحيح يدل على معنى واحد وهو الستر والتغطية يقال لمن غطى درعه بثوب قد كفر ذرعه... ويقال للزارع كافر لأنه يغطي الحب بتراب الأرض قال الله تعالى (أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ). والكفر ضد الإيمان سمي لأنه تغطية للحق وكذلك كفران النعمة جحودها وسترها"[1].

وقال الأزهري "قال الليث الكفر نقيض الإيمان آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت، ويقال لأهل دار الحرب قد كفروا أي عصوا وامتنعوا، قال والكفر كفر النعمة وهو نقيض الشكر... قال شمر قال بعض أهل العلم الكفر على أربعة أنحاء كفر إنكار وكفر جحود وكفر معاندة وكفر نفاق... وقال شمر ويكون الكفر أيضاً بمعنى البراءة كقول الله عز وجل حكاية عن الشيطان في خطيئته إذا أُدخل النار (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ)[2] أي تبرأت.... وقال الليث يقال إنه سمي الكافر كافراً لأن الكفر غطى قلبه كله... قلت "القائل الأزهري" ومعنى قول الليث قيل له كافر لأن الكفر غطى قلبه يحتاج إلى بيان يدل عليه وإيضاحه أن الكفر في اللغة معناه التغطية والكافر ذو كفر أي ذو تغطية لقلبه بكفره كما يقال للابس السلاح كافر وهو الذي غطاه السلاح، ومثله رجل كاس ذو كسوة وماء دافق ذو دفق، وفيه قول آخر وهو أحسن مما ذهب إليه الليث وذلك أن الكافر لما دعاه الله عز وجل إلى توحيده، فقد دعاه إلى نعمة ينعم بها عليه إذا قبلها، فلما رد ما دعا إليه من توحيده كان كافراً نعمة الله أي مغطياً لها بإبائه حاجباً لها عنه.

وروى الأزهري بسنده عن ابن السكيت أنه إذا لبس الرجل فوق درعه ثوباً فهو كافر وقد كفر فوق درعه، قال وكل ما غطى شيئاً فقد كفره.... ومنه سمي الكافر كافراً لأنه ستر نعم الله، قلت "القائل الأزهري" ونعم الله عز وجل آياته الدالة على توحيده[3]، وقال في

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ١٩١، وقارن بما في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٨.

(٢) إبراهيم: ٢٢.

(٣) انظر تهذيب اللغة ١٠/ ١٩٣، وقارن بما في اللسان ٥/ ١٤٣، وبما في ترتيب القاموس المحيط ٤/ ٦٥، وبما في المفردات في غريب القرآن ص ٤٣٣.

الصحاح والتكفير أن يخضع الإنسان لغيره كما يكفر العلج للدهاقين يضع يده على صدره ويتطامن له[1].

ومما تقدم يتضح أن من معاني الكفر الستر والتغطية والإنكار والجحود والمعاندة والبراءة والامتناع والعصيان والبغض والعداوة وأن هذه المعاني لا بد أن يحققها الإنسان بقلبه ولسانه وعمله تجاه الطاغوت لأن الكفر نقيض الإيمان كما تقدم والإيمان يكون بالقلب واللسان والعمل، فإذا أراد العبد أن يكفر بالطاغوت الذي تقدم شرح مسماه فلا بد من أن يستر ويغطي وينكر ويجحد الخصائص والصفات التي طغى بها الطاغوت وهو لا يستحقها أو ادعيت له وهو لا يستحقها ولا بد أن يعصي وأن يمتنع عن الاستجابة للطاغوت في ممارسة أي شيء يظهر منه الإقرار للطاغوت بشيء من الخصائص والصفات التي طغى بها الطاغوت أو ادعيت له وهو لا يستحقها، ولا بد أن يعلن البراءة من الطاغوت ويبغض الطاغوت ولا يحب أن تنسب له الخصائص والصفات التي طغى بها أو ادعيت له وهو لا يستحقها، فإذا كان طغيان الطاغوت بادعاء علم الغيب مثلاً أو ادعاء ملك النفع والضر أو ادعاء رد الأمر إليه وحده عند التنازع أو ادعى له أحد هذه الخصائص وما شابهها من خصائص الرحمن، أو ادعى خصائص الأنبياء أو ادعيت له، فلا بد حتى يتحقق إيمان العبد بالله ويكون كافراً بالطاغوت أن ينكر هذه الخصائص لذلك الطاغوت وأن يستر إثباتها له ويجحدها وأن يتبرأ من الطاغوت ومن إثبات تلك الخصائص له وأن يعانده ويكره بقلبه الطاغوت وما ادعاه أو أدعي له وألا يطيعه في شيء من تلك الدعاوي، وأن يكون هذا الكفر بالقلب واللسان والعمل لأن الكفر نقيض الإيمان كما تقدم من قول الليث الذي نقله الأزهري، والإيمان يكون بالقلب واللسان والعمل كما سيأتي.

ومن معاني الباء في لغة العرب التي لا تفارقها الإلصاق[2] فإذا قال الله تعالى (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ)[3]، فلا بد أن يلصق العبد الكفر بالطاغوت، وهذا الإلصاق يعني أن تبلغ الغاية في إثبات معاني الكفر للطاغوت وتبلغ الغاية في إثبات معاني الإيمان لله تبارك وتعالى، والكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة قد احتوت نصوصهما على بيان هذه الحقيقة بياناً شافياً بل هي من أظهر الحقائق على الإطلاق في الكتاب والسنة.

---

(١) الصحاح ٢/ ٨٠٨.

(٢) انظر مغني اللبيب لابن هشام ١/ ١٠١.

(٣) البقرة: ٢٥٦.

فمن الأدلة على وجوب الكفر بالطاغوت باللسان قوله تعالى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ، مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)[١]، فهذه الآية واضحة الدلالة على أن من تكلم بالكفر بلسانه من غير إكراه فإنه يكفر، فعلى هذا فكل من قال قولاً بلسانه من غير إكراه يؤيد به الطاغوت على طغيانه أو يؤيد به ما ادعي للطاغوت من خصائص وصفات لا يستحقها وإنما هي من خصائص الله تبارك وتعالى فإنه يشمله حكم الآية السابقة ومن كفر بالله فهو مؤمن بالطاغوت قطعاً، فالكفر بالله والكفر بالطاغوت والإيمان بالله والإيمان بالطاغوت متناقضان لا يجتمعان في آن واحد، ولا يرتفعان في آن واحد ولذا قال الله تبارك وتعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)[٢]، فمع أن الكافرين كانوا يعبدون الله ويعبدون غيره من الآلهة المدعاة إلا أن الله نفى أن يكونوا عابدين لما يعبده الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لأن عبادتهم لله بطلت بوقوعهم في عبادة الطواغيت كما قال سبحانه وتعالى (..وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)[٣]، ولأن عبادتهم لله ليست وصفاً ثابتاً لهم جاز نفيها عنهم وإن وقعت منهم أحياناً كما في قوله (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)[٤].

فإذا لم يُكره الإنسان على قول الكفر بلسانه فلا بد من أن يكفر بالطاغوت بلسانه، ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب من الداخل في الإسلام أن يعلن بلسانه كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" المتضمنة حصر خصائص الربوبية والألوهية في الله تبارك وتعالى ونفيها عن كل طاغوت، بل إن الذي لا يعلن بلسانه الكفر بالطاغوت مع القدرة على النطق لا يعتد بإسلامه، يقول النووي "واتفق أهل السنة والمحدثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذي يُحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد في النار لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ونطق الشهادتين فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلاً إلا إذا عجز عن النطق"[٥]. قلت وإذا نطق بالشهادة المتضمنة لنفي الألوهية عن غير الله فإنه يكون قد كفر بالطاغوت الذي هو عام في كل ما عُبد من دون الله كما تقدم، ولذا رأينا الأنبياء جميعاً يعلنون البراءة من الطواغيت كما قال سبحانه (قَدْ كَانَتْ

---

(١) النحل: ١٠٥-١٠٦.

(٢) الكافرون: ١-٣.

(٣) الأنعام: ٨٨.

(٤) الكهف: ١٦.

(٥) النووي مع مسلم ١/ ١٤٩.

لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ...)[١].

يقول ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية "يقول تعالى للمؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان لكم أيها المؤمنون أسوة حسنة يقول قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن تقتدون به والذين معه من أنبياء الله، كما حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد في قول الله عز وجل (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ)، قال الذين معه الأنبياء، وقوله (إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) يقول حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله وعبدوا الطاغوت أيها القوم إنا براؤا منكم ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد، وقوله (كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)، يقول جل ثناؤه مخبراً عن قيل أنبيائه لقومهم الكفرة كفرنا بكم أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم وما تعبدون من دون الله أن تكون حقاً وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً على كفركم بالله وعبادتكم ما سواه، ولا صلح بيننا ولا هوادة حتى تؤمنوا بالله وحده، يقول تصدقوا بالله وحده فتوحدوه وتفردوه بالعبادة"[٢].

وكذلك يصرح إبراهيم عليه السلام بالبراءة من الطواغيت (قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)[٣]، (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)[٤]. وكما أن الكفر بالطاغوت يكون باللسان فكذلك يجب أن يكون الكفر بالطاغوت بالقلب أيضاً لأن عمل القلب ركن مهم في الإيمان بالله بل هو أصل الإيمان وأعمال القلوب الإيمانية تشتمل على قول القلب الذي هو إقراره وتصديقه وعمل القلب الذي هو انقياده وإذعانه لله المتضمن إفراده سبحانه بالعبادة حباً وخوفاً ورجاء ورغبة ورهبة وإنابة وتوكلاً وخشوعاً واستعانة وإجلالاً ودعاء وتعظيماً وانقياداً وتسليماً لأمره ورضاً بحكمه، يقول ابن تيمية "فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب ولا بد فيه من شيئين تصديق بالقلب، وإقراره ومعرفته"، ويقال لهذا قول القلب. قال الجنيد بن محمد "التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب فلا بد فيه من قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله، ولا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله وحب ما يحبه الله

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) ابن جرير الطبري ١٠/ ٤٠.

(٣) الشعراء: ٧٥-٧٧.

(٤) الزخرف: ٢٦-٢٧.

ورسوله وبغض ما يبغضه الله ورسوله وإخلاص العمل لله وحده وتوكل القلب على الله وحده وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان، ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة واردة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب"، فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث قول وعمل قول باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد.

ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه فلا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، قال الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ)، فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حباً لله من المشركين لأندادهم[1].

ويقول عليه رحمة الله "وأجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان وعمل الجوارح، فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم... وهذا التصديق يتبعه عمل القلب وهو حب الله ورسوله وتعظيم الله ورسوله وتعزير الرسول وتوقيره وخشية الله والإنابة إليه والإخلاص له والتوكل عليه إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة المعلول، ويتبع الاعتقاد قول اللسان ويتبع عمل القلب الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك[2].

قلت وإذا كان الكفر بالله هو نقيض الإيمان بالله كما تقدم فإن الكفر بالطاغوت هو حقيقة الإيمان بالله فيكون الكفر بالطاغوت بالقلب هو أصل الإيمان بالله تعالى ولا يكون العبد كافراً بالطاغوت حتى لا يصدق بعبادته ولا يقر له بها ولا يذعن له ولا يحبه ولا يجله ولا يخافه خوف العبادة ولا يتوكل عليه ولا يعظمه ولا يستسلم لأمره ولا يرضى بحكمه ولا يصرف له شيئاً من أنواع العبادات القلبية الأخرى، يقول ابن القيم "إن الإيمان قول وعمل

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ١٨٦.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٦٧٢.

والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمناً كما قال عن قوم فرعون (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ)[1]، وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح (وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ)[2]، وقال موسى لفرعون (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ)[3]، فهؤلاء حصل لهم قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمناً بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة فيحب الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً، وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به"[4]، فهذا ابن القيم نص على أن الإنسان لا يكون مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب المتضمن الكفر بالطاغوت بالبراءة منه ومعاداته وبغضه، ومثل هذا قوله عليه رحمة الله "وما نجا من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم إلى الله واتخذ الله وحده وليه وإلهه ومعبوده فجرد حبه لله وخوفه لله ورجاءه لله وذله لله وتوكله على الله واستعانته بالله والتجاءه إلى الله واستغاثته بالله وإخلاص قصده لله متبعاً لأمره متطلباً لمرضاته"[5].

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن صفة الكفر بالطاغوت "واعلم رحمك الله تعالى أن أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله والدليل قوله تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ)[6]، فأما صفة الكفر بالطاغوت فهو أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتكفر أهلها وتعاديهم، وأما معنى الإيمان بالله فهو أن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده دون سواه وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله وتنفيها عن كل معبود سواه وتحب أهل الإخلاص وتواليهم وتبغض أهل الشرك وتعاديهم، وهذه ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها"[7].

(١) النمل: ١٤.

(٢) العنكبوت: ٣٨.

(٣) الإسراء: ١٠٢.

(٤) عدة الصابرين لابن القيم ٨٨.

(٥) مدارج السالكين ١/ ٣٤٦.

(٦) النحل: ٣٦.

(٧) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الأول- العقيدة ص٣٧٦.

ومما يدل على أن من معاني الكفر بالطاغوت البراءة منه بالقلب كالبراءة منه باللسان التي تقدم الحديث عنه، قوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً)[١]، فإن الذي يجلس مع الكفار وهم يكفرون بالله ويستهزئون بدينه ويظهر لهم الرضى بذلك ولم يتبرأ من الطاغوت لا بلسانه ولا بقلبه فهو كافر مثلهم لأن القلب لا سلطان للكفار عليه، وإذا لم تحصل البراءة بالقلب دل على زوال الإيمان بالكلية وعلى فقد الكفر بالطاغوت.

ومما يدل على هذه قصة أصحاب مسجد بني حنيفة إذ تكلم بعضهم بأن مسيلمة رسول والحاضرون لم ينكروا على المتكلم ولم يخرجوا من المسجد فاعتبرهم الصحابة قد ارتدوا بهذا العمل، المتكلم والساكت الذي لم يتبرأ من الكفر وأهله، ولذا سماهم البخاري رحمه الله مرتدين فقال "وقال جرير والأشعث لعبد الله بن مسعود في المرتدين استتبهم وكفلهم فتابوا وكفلهم عشائرهم"[٢]، قال ابن حجر في الفتح "وقال جرير أي ابن عبد الله البجلي والأشعث أي ابن قيس الكندي وهذا مختصر من قصة أخرجها البيهقي بطولها من طريق أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب، قال صليت الغداة مع عبد الله بن مسعود فلما سلم قام رجل فأخبره أنه انتهى إلى مسجد بني حنيفة فسمع مؤذن عبد الله بن النواحة يشهد أن مسيلمة رسول الله فقال عبد الله علي بابن النواحة وأصحابه فجيء بهم فأمر قرظة بن كعب فضرب عنق ابن النواحة ثم استشار الناس في أولئك النفر فأشار عليه عدي بن حاتم بقتلهم فقام جرير والأشعث فقالا بل استتبهم وكفلهم عشائرهم فتابوا وكفّلهم عشائرهم، وروى ابن أبي شيبة من طريق قيس بن أبي حازم أن عدة المذكورين كانت مائة وسبعين رجلاً"[٣].

ويقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٤] لما سئل عن الآية المتقدمة (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا... الآية)[٥]، وعن

(١) النساء: ١٤٠.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٤/ ٣٨٤.

(٣) فتح الباري ٤/ ٣٨٤، وقارن بسنن البيهقي ٨/ ٢٠٦، ومسند أحمد ١/ ٤٠٤، وفيه سبب قتل ابن النواحة دون البقية.

(٤) عالم جليل له مؤلفات قيمة من أشهرها تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد، قتله إبراهيم باشا عندما استولى على الدرعية عام ١٢٣٣هـ، انظر علماء نجد للبسام ١/ ٢٩٣.

(٥) النساء: ١٤٠.

حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله"[١]، الجواب أن معنى الآية على ظاهرها وهو أن الرجل إذا سمع آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فجلس عند الكافرين المستهزئين من غير إكراه ولا إنكار ولا قيام عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره فهو كافر مثلهم وإن لم يفعل فعلهم لأن ذلك يتضمن الرضى بالكفر والرضى بالكفر كفر، وبهذه الآية ونحوها استدل العلماء على أن الراضي بالذنب كفاعله فإن ادعى أنه يكره ذلك بقلبه لم يقبل منه لأن الحكم على الظاهر، وهو قد أظهر الكفر فيكون كافراً. ولهذا لما وقعت الردة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وادعى أناس أنهم كرهوا ذلك لم يقبل منهم الصحابة ذلك بل جعلوهم كلهم مرتدين إلا من أنكر بلسانه وقلبه، وكذلك قوله في الحديث "من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله" على ظاهره وهو أن الذي يدعي الإسلام ويكون مع المشركين في الاجتماع والنصرة والمنزل معهم بحيث يعده المشركون منهم فهو كافر مثلهم وإن ادعى الإسلام إلا إن كان يظهر دينه ولا يوالي المشركين. ولهذا لما ادعى بعض الناس الذين أقاموا في مكة بعدما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم فادعوا الإسلام إلا أنهم أقاموا في مكة يعدهم المشركون منهم وخرجوا معهم يوم بدر كارهين للخاروج فقتلوا فظن بعض الصحابة أنهم مسلمون وقال: قتلنا إخواننا فأنزل الله تعالى فيهم (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ... الآية)[٢]، قال السدي وغيره من المفسرين "إنهم كانوا كفاراً ولم يعذر الله منهم إلا المستضعفين"[٣]، قلت والذين قاتلوا الرسول صلى الله عليه وسلم في بدر مع المشركين فإنهم وإن كانوا خرجوا كارهين إلا أنهم بعد أن تقابل الصفان يستطيعون الانحياز إلى صف المسلمين فمن استطاع الانحياز ولم يفعل ذلك لأنه يرغب في الرجوع إلى مكة لأجل ماله فلا عذر له بل هو من الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

وهذا الآية المتقدمة والحديث النبوي من أعظم ما يبين معنى الكفر بالطاغوت إلا للمكره فإنه يعذر فيما يتعلق باللسان والجوارح وأما القلب فلا عذر لمن ترك البراءة به لأنه لا سلطان لأحد عليه، ولذا فلا بد أن يبرأ القلب من حب الطاغوت ومن تعظيمه ومن خوفه خوف العبادة حتى يتحقق الكفر بالطاغوت، وكذلك أعمال الجوارح لا بد أن يصرفها العبد لله تبارك وتعالى ولا يصرف شيئاً منها للطاغوت فإن أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان فمن صرفها للطاغوت فقد آمن بالطاغوت ولم يكفر به، ومن أفرد أعماله لله تبارك وتعالى فقد كفر بالطاغوت، وإن مما يبين معنى الكفر بالطاغوت أن يعلم العبد أنه لا يصلي إلا لله ولا يزكي إلا لله ولا يذبح إلا لله ولا ينذر إلا لله ولا يحج إلا لله ولا يتحاكم إلا لله ولا

---

(١) الحديث صححه الألباني صحيح أبي داود ٢/ ٩٣٦.

(٢) النساء: ٩٧.

(٣) مجموعة التوحيد: ٦٨.

يستمد التحليل والتحريم إلا من الله. فإذا كان العبد كل أمره لله فإنه قد أنكر الطاغوت وجحده وعصاه وامتنع عن الاستجابة له وكرهه وكره طاعته واحتقره وأذله وتبرأ من صرف شيء من العبادة له. والمتتبع لنصوص الكتاب والسنة يرى تعدد أساليبها وتنوع ألفاظها لتقرر قضية البراءة من الطاغوت براءة تامة، ولتوضح حقيقة الكفر بالطاغوت حتى لا يلتبس على الناس. فمن هذه النصوص ما جاء بلفظ البراءة من الطاغوت كقوله تعالى (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)[1].

ولا شك أن البراءة مستلزمة للبغض والكره فلا يمكن أن يبرأ الإنسان من شيء يحبه وإنما يبرأ مما يكره ويبغض، ومن النصوص ما جاء بلفظ الاجتناب وهو الترك والابتعاد كقوله تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ)[2]، وكقوله تعالى (...فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ)[3]، ومن النصوص ما جاء بلفظ الترك كقوله تعالى (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)[4]، وكقوله تعالى (قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)[5]، فيوسف عليه السلام من علامة توحيده وإخلاصه ترك ملة أهل الكفر ومعبوداتهم، وقوم شعيب علموا أن دعوة شعيب تنبني على ترك عبادة غير الله مما يعبد آباؤهم فاستعظموا ذلك لأنهم لا يحبون مفارقة عبادة آلهة الآباء، والتوحيد لا يتم إلا بالكفر بكل معبود غير الله.

ومن النصوص ما جاء بلفظ الاعتزال كقوله تعالى (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً، فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً)[6].

ومن النصوص ما جاء بلفظ النهي عن الشرك كقوله تعالى (وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً)[7]، والإخبار عن الشرك بأنه محرم كقوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ

(١) الأنعام: ١٩.

(٢) النحل: ٣٦

(٣) الحج: ٣٠.

(٤) يوسف: ٣٧.

(٥) هود: ٨٧.

(٦) مريم: ٤٨-٤٩.

(٧) النساء: ٣٦.

مَا لاَ تَعْلَمُونَ)[1] ووصف المشرك بأنه قد حرمت عليه الجنة (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ)[2]، والتحذير في القرآن من الشرك وأهله والتنفير منه ومن أهله كثيرة جداً وكل هذا مما يدل على أهمية البراءة من الطاغوت وبغضه والامتناع عن طاعته وإنكار عبادته وجحودها.

ومثل الذي جاء في القرآن الكريم جاء في نصوص السنة المطهرة... فقد جاءت بالتحذير من الشرك والأمر بخلع الأوثان والأنداد والبراءة من الكفر وأهله وترك ما يعبد الآباء فمن ذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس فقال بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً... الحديث"[3].

وحديث أبي سفيان بن حرب عندما سأله هرقل عن صفة الرسول صلى الله عليه وسلم وعن دعوته فقال أبو سفيان قلت "يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم..."[4].

وحديث جعفر بن أبي طالب لما وضح للنجاشي ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "... فدعا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان..."[5].

وحديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر"[6]. والأحاديث التي جاءت في فضائل لا إله إلا الله كلها توضح معنى الكفر بالطاغوت كقوله صلى الله عليه وسلم "فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"[7]، وقوله "أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه"[8] وذلك لأن لا إله إلا الله براءة من الشرك كما قال صلى الله عليه

(١) الأعراف: ٣٣.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) صحيح البخاري ٨/ ١٥.

(٤) صحيح البخاري ١/ ٥.

(٥) مسند أحمد ١/ ٢٠٢.

(٦) صحيح البخاري ٧/ ٢٩.

(٧) المصدر السابق ١/ ١١٠.

(٨) المصدر السابق ١.

وسلم لما سمع من يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله "وأنا أشهد وأشهد أن لا يشهد بها أحد إلا برئ من الشرك"[1].

والكفار في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفون أن لا إله إلا الله إنما هي كفر بالطواغيت التي يعبدونها لأنهم عرب خلص يعلمون معاني لا إله إلا الله. ماذا تنفي وماذا تثبت كما في حديث أشعث قال وحدثني شيخ من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذي المجاز يتخللها يقول يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، قال وأبو جهل يحثي عليه التراب ويقول أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم فإنما يريد لتتركوا آلهتكم ولتتركوا اللات والعزى..."[2].

وفي مسند أحمد قصة شبيهة بهذه القصة غير أن الذي يتبعه ويكذبه عمه أبو لهب[3]، وهذا الأمر واضح من ذكر الله لقول المشركين حيث قال سبحانه (وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)[4]. وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فنهيته، فبعث إليه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل قال فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا قرب عمه فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول، قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية ففزعوا لكلمته ولقوله وقالوا كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرة فقالوا وما هي؟ وقال أبو طالب وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ فقال لا إله إلا الله فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ[5])[6]، وهذا من أعظم ما يبين أن لا إله إلا الله متضمنة للكفر بالطواغيت وأن قولها يلزم المشركين بخلع أوثانهم وتركها وبغضها

(١) مسند أحمد ٥/ ٤٥١.

(٢) مسند أحمد ٤/٦٣، ٥/٣٧٦، وقال أكرم العمري إسناده صحيح انظر صحيح السيرة ١/ ١٩٣.

(٣) المسند ٣/ ٣٤١.

(٤) سورة ص: ٤٠٥.

(٥) سورة ص: ٥.

(٦) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٠.

والبراءة منها وعداوتها وعدم طاعتها أو طاعة سدنتها أو تعظيمها أو الشعور لها بأدنى احترام، وهذا ما جعل المشركين ينفضون ثيابهم ويقومون من مجلس أبي طالب، هذا لمن عرف معناها على حقيقته كما عرفها كفار قريش أهل الفصاحة والبلاغة.

ولذا فهم يمارسون عبادة الطاغوت بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم، فمن الأمثلة على عبادتهم للطاغوت بألسنتهم حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال كان المشركون يقولون لبيك لا شريك لك قال فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ويلكم قدْ قدْ فيقولون إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت[١].

ومن الأمثلة على عبادتهم للطاغوت بجوارحهم الذبح للأصنام كما قال البخاري رحمه الله باب الفرع... والفرع أول النتاج كانوا يذبحونه لطواغيتهم[٢].. ومن الأمثلة على عبادتهم للطواغيت بقلوبهم حبهم لها حباً شديداً والحب من أعظم عبادات القلب وأهل الجاهلية يصرفون هذا الحب للطواغيت كما قال سبحانه (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلهِ)[٣].

وإذا كانت عبادة المشركين للطواغيت بألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم كما تقدم من عرض الأدلة على ذلك فإنه يظهر لنا جلياً معنى الكفر بالطاغوت وأنه لا بد أن يكون كفراً به باللسان وكفراً به بالجوارح وكفراً به بالقلب. ولأن هذه القضية أصل في الإيمان بالله تبارك وتعالى نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بما يبغض المسلمين في الطواغيت وعابديها وينفرهم منها ومنهم حتى لا يبقى في قلوب المسلمين أدنى ميل نحو الطواغيت ومن تعلق بها، فها هو صلى الله عليه وسلم يبايع بعض من جاءه على زيال المشرك أي مفارقته[٤]، ويبايع على البراءة من الكفار كما في حديث جرير بن عبد الله قال قلت يا رسول الله اشترط علي فقال تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتنصح للمسلم وتبرأ من الكافر"[٥].

---

(١) مسلم مع النووي ٨/ ٩٠، ومعنى قد قد أي كفاكم هذا الكلام فاقتصروا عليه ولا تزيدوا.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢١٧.

(٣) البقرة: ١٦٥.

(٤) انظر مسند أحمد بن حنبل ٤/ ١٤.

(٥) مسند أحمد ٤/ ٣٥٧.

بل نهى صلى الله عليه وسلم عن مجرد المشابهة كقوله صلى الله عليه وسلم "من تشبه بقوم فهو منهم"[١] لأن مجرد المشابهة في لباس أو سلوك من غير حب القلب قد يكون وسيلة لحب القلب الذي يضاد الكفر بالطاغوت فنهى الإسلام عن هذه الوسيلة.

ولتأكيد بغض الكافر وإظهار ذله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لاتبدأوهم بالسلام وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطريق"[٢]، وكان من آخر وصاياه صلى الله عليه وسلم إخراج المشركين من جزيرة العرب[٣]، وأعظم من هذا كله نفي الإيمان عمن يحب الكافرين ويوادهم كما قال سبحانه (لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ)[٤]، وقال (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء)[٥].

ونظراً لأن إزالة معابد الجاهلية وشعائر الكفر مما يرسخ هذه القضية في قلوب المؤمنين، جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بكسر الأوثان كما في حديث عمرو بن عبسة السلمي"... قال قلت آلله أرسلك قال نعم قلت: بأي شيء أرسلك قال بأن يوحد الله ولا يشرك به شيء وكسر الأوثان وصلة الرحم..."[٦].

وكانت راحة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تكسير معابد الجاهلية كما روى البخاري في صحيحه عن جرير رضي الله عنه قال لي النبي صلى الله عليه وسلم "ألا تريحني[٧] من ذي الخلصة وكان بيتاً في خثعم يسمى الكعبة اليمانية، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس[٨] وكانوا أصحاب خيل وكنت لا أثبت على الخيل فضرب في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري وقال اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً. فانطلق إليها فكسرها وحرقها ثم

(١) مسند أحمد ٢/ ٩٢، وصححه الألباني في الإرواء ٥/ ١٠٩.

(٢) الحديث صححه الألباني في صحيح أبي داود ٣/ ٩٧٧.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ٣١.

(٤) المجادلة: ٢٢.

(٥) المائدة: ٨١.

(٦) مسند أحمد ٤/ ١١٢.

(٧) قال ابن حجر والمراد بالراحة راحة القلب وما كان شيء أتعب لقلب النبي صلى الله عليه وسلم من بقائه يشرك به من دون الله تعالى، انظر الفتح ٧/ ٥٦.

(٨) أحمس أخوة بجيلة ينتسبون إلى أحمس بن الغوث بن أنمار.

بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول جرير والذي بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب، قال فبارك في خيل أحمس ورجالها خمس مرات"[١].

ولما سأل وفد ثقيف رسول الله أن يدع لهم الطاغية هي اللات لا يهدمها ثلاث سنين أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى وإنما يريدون ذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها[٢].

يقول ابن القيم في الفوائد المستنبطة من هذه القصة "ومنها أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً فإنها شعائر الكفر والشرك وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة. وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته وكثير منه بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى أو أعظم شركاً عندها وبها"[٣]، قلت وهذا واضح من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح، فعن مجاهد عن أبي معمر عن عبد الله قال "دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد"[٤].

ولذا يعتبر تشريع الجهاد باليد واللسان والمال والقلب من أعظم ما يبين معنى الكفر بالطاغوت لأن هدف الجهاد الأسمى هو إزالة الشرك وعبادة الطاغوت وإخضاع الناس لرب العالمين كما قال سبحانه (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ)[٥]، وقال عز وجل (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه)[٦] ومعنى حتى لا تكون فتنة أي شرك كما

(١) صحيح البخاري ٥/ ١١٢.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٤٩٩.

(٣) المصدر السابق ٣/٥٠٦.

(٤) صحيح البخاري ٥/ ٩٢.

(٥) البقرة: ١٩٣.

(٦) الأنفال: ٣٩.

فسرها بذلك الصحابة والتابعون[١]، ويكون الدين لله أي يخلص له التوحيد ويعبد وحده لا شريك له وتكون الطاعة لله عز وجل[٢]، وكما قال المغيرة بن شعبة لعامل كسرى "فأمرنا نبينا رسول ربنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية"[٣].

ولا شك أن المقاتلة هي نهاية البغض والعداوة والبراءة وهذا مما يدل على أن بغض الطاغوت لا استثناء فيه بوجه من الوجوه وأن إزالته من الأرض مع القدرة على ذلك حتى تكون كلمته هي السفلى وكلمة الله هي العليا هو سبيل الله الذي ارتضاه لعباده كما قال صلى الله عليه وسلم "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"[٤]، ويقول صلى الله عليه وسلم "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله"[٥]، ويقول صلى الله عليه وسلم "بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم"[٦].

وإن الطاغوت داخل في مسمى المنكر الذي تجب إزالته على قدر استطاعة العبد كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"[٧]، وقال صلى الله عليه وسلم "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل"[٨].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٩.
(٢) انظر زاد المسير ١/ ٢٠٠، وتفسير الطبري ٣/ ٥٣٧.
(٣) صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ١٩٠.
(٤) صحيح مسلم مع النووي ١٣/ ٤٩.
(٥) صحيح البخاري مع الفتح ١/ ٧٢.
(٦) مسند أحمد ٢/ ٩٢ وصححه الألباني في الإرواء ٥/ ١٠٩.
(٧) صحيح مسلم مع النووي ٢/ ٢٢.
(٨) المصدر السابق ٢/ ٦٧.

قلت والإنكار بالقلب والجهاد بالقلب لا يكون إلا بالبغض والكره، وإذا لم يوجد في القلب دل على أن صاحبه لا يكفر بالطاغوت لأن هذا أضعف الإيمان وليس وراءه من الإيمان حبة خردل كما جاء في الحديث.

الفصل الرابع

العلاقة بين الإيمان بالله والكفر بالطاغوت

المبحث الأول: حقيقة الإيمان في اللغة والشرع

قال ابن فارس (أمن) الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان، أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق.... وأما التصديق فقول الله (وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا) أي مصدق لنا[1].

وقال الأزهري "وأما الإيمان فهو مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن"، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق، وقال الله تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا)[2]، وهذا موضع يحتاج الناس إلى تفهمه وأين ينفصل المؤمن من المسلم، وأين يستويان. فالإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وبه يحقن الدم، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان الذي يقال للموصوف به هو مؤمن مسلم، وهو المؤمن بالله ورسوله غير مرتاب ولا شاك، والذي يرى أن أداء الفرائض واجب عليه وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه لا يدخله في ذلك ريب فهو المؤمن وهو المسلم حقاً كما قال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)[3] أي أولئك الذين قالوا إنا مؤمنون فهم الصادقون. فأما من أظهر قبول الشريعة واستسلم لدفع المكروه فهو في الظاهر مسلم وباطنه غير مصدق، فذلك الذي يقول أسلمت، لأن الإيمان لا بد من أن يكون صاحبه صدّيقاً لأن قولك آمنت بالله أو قال قائل آمنت بكذا أو كذا فمعناه صدقت فأخرج الله تعالى هؤلاء من الإيمان فقال (وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)[4] أي لم تصدقوا إنما استسلمتم تعوذاً من القتل، فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر، والمسلم التام الإسلام مظهر الطاعة مؤمن بها.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ١٣٣.

(٢) الحجرات: ١٤.

(٣) الحجرات: ١٥.

(٤) الحجرات: ١٤.

والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه فهو غير مؤد للأمانة التي ائتمنه الله عليها وهو منافق... وفي قول الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)[1] ما يبين لك أن المؤمن هو المتضمن لهذه الصفة وأن من لم يتضمن هذه الصفة فليس بمؤمن لأن "إنما" في كلام العرب تجيء لتثبيت شيء ونفي ما خالفه.. وقال النضر "قالوا للخليل ما الإيمان فقال الطمأنينة"، وعن اللحياني الإيمان الثقة[2]. وقال ابن منظور والإيمان ضد الكفر والإيمان بمعنى التصديق ضده التكذيب، يقال آمن به قوم وكذب به قوم... قال الزجاج صفة المؤمن بالله أن يكون راجياً ثوابه خاسياً عقابه[3]. وفي ترتيب القاموس "والإيمان الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة"[4].

وأما الإيمان في الشرع فهو شامل للدين كله كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان"[5]، وقال صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس "أتدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس... الحديث"[6].

قال البخاري في صحيحه باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي صلى الله عليه وسلم له ثم قال "... جاء جبريل عليه السلام يعلمكم دينكم"، فجعل ذلك كله ديناً وما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس من الإيمان، وقوله تعالى (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ)[7]، وروى بسنده عن أبي هريرة قال "كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال ما الإيمان قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث، قال ما الإسلام قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٥١٢.

(٣) لسان العرب ١٣/ ٢١.

(٤) ترتيب القاموس ١/ ١٨٢.

(٥) صحيح البخاري ١/ ٨.

(٦) صحيح البخاري ١/ ١٩.

(٧) آل عمران: ٨٥.

رمضان، قال ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال متى الساعة قال ما المسئول بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربتها وإذا تطاول رعاة الإبل إليهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) ثم أدبر فقال ردوه فلم يروا شيئاً فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم. قال أبو عبد الله جعل ذلك كله من الإيمان"[1]. وأثبت البخاري عليه رحمة الله بالأدلة الصحيحة أن الإيمان يشمل الدين كله وأن الإسلام داخل في مسماه وأنه يشمل الأقوال والأفعال، فقال "وهو قول وفعل ويزيد وينقص"، وهذا الذي قرره البخاري من أن الإيمان قول وعمل هو مذهب أهل السنة والجماعة تلقاه البخاري عنهم مشافهة مقروناً بالنصوص الشرعية فقد رواه عنه اللالكائي، سمع حيث قال البخاري "لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم... رأيت واحداً منهم يختلف في هذه الأشياء: أن الدين قول وعمل. قال الله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ[2])[3].

وقد ذكر البخاري في صحيحه أبواباً تدل على أن الإيمان يشمل ما في القلب كقوله (باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) و(باب علامة الإيمان حب الأنصار)، وذكر أبواباً تدل على أن الإيمان يشمل عمل الجوارح كقوله (باب الصلاة من الإيمان)، (باب قيام ليلة القدر من الإيمان)، (باب صوم رمضان إحتساباً من الإيمان)، وذكر أبواب تدل على أن الإيمان يشمل قول اللسان كقوله (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "بني الإسلام على خمس وذكر فيه حديث ابن عمر قال "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان" فقوله شهادة أن لا إله إلا الله يدل على أن قول اللسان داخل في مسمى الإسلام ومسمى الإسلام داخل في مسمى الإيمان كما في حديث وفد عبد القيس الذي ذكره البخاري وأشرت إليه آنفاً.

(١) صحيح البخاري ١/ ١٨، والحديث له طرق كثيرة وألفاظ مختلفة، انظر الفتح ١/ ١٠٥.

(٢) البينة: ٥.

(٣) السنة للالكائي ١/ ١٠٣.

قال ابن رجب والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان. وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم"[1].

ولا يعكر على هذا حديث جبريل المشهور الذي تقدم ذكره عن أبي هريرة والذي رواه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه باختلاف في بعض الألفاظ عما في البخاري ونصه عند مسلم "... قال يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال صدقت..."[2]، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث فرق بين الإسلام والإيمان وجعل الأعمال كلها من الإسلام بينما أهل السنة يجعلون الإسلام من الإيمان والأعمال من الإيمان بناء على نصوص أخر كثيرة من القرآن والسنة.

ووجه الجمع بين حديث جبريل وغيره من النصوص الشرعية ذكره جمع من العلماء ومنهم ابن رجب حيث قال "وأما وجه الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان وتفريق النبي صلى الله عليه وسلم بينهما وإدخاله الأعمال في مسمى الإسلام دون الإيمان فإنه يتضح بتقرير أصل وهو أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات والاسم المقرون به دال على باقيها، وهذا كإسم الفقير والمسكين فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج فإذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات والآخر على باقيها، فهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده، فإذا قورن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي... وبهذا التفصيل الذي ذكرناه يزول الاختلاف فيقال إذا أفراد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ، وإن قرن بين الإسمين كان بينهما فرق والتحقيق في الفرق بينهما أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته، والإسلام هو استسلام العبد وخضوعه وانقياده له وذلك يكون بالعمل وهو الدين كما سمى الله في كتابه الإسلام ديناً. وفي حديث جبريل سمى النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام

(١) جامع العلوم والحكم ص٢٥.

(٢) صحيح مسلم

والإيمان والإحسان ديناً"[١]. فإذا اتضح لنا من كلام أهل اللغة ومن كلام العلماء الربانيين المستنبط من الكتاب والسنة معنى الإيمان بالله فلننظر الآن ما علاقة الكفر بالطاغوت الذي تقدم شرح معناه بالإيمان بالله تعالى وأقصد بالإيمان هنا المعنى العام الذي يُفهم من الإيمان عند انفراده عن الإسلام والذي يدخل فيه الإسلام وغيره من شرائع الدين كقوله صلى الله عليه وسلم "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان".

(١) جامع العلوم والحكم ٢٥-٢٧.

المبحث الثاني: علاقة الكفر بالطاغوت بالإيمان بالله:

إن الله تبارك وتعالى وضح علاقة الكفر بالطاغوت بالإيمان بالله تعالى في قوله (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[١]، فقد بين الله بأن المستمسك بالعروة الوثقى هو الذي جمع بين الإيمان بالله والكفر بالطاغوت. يقول ابن الجوزي "قوله تعالى (فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ) هذا مثل للإيمان شبه التمسك به بالتمسك بالعروة الوثيقة، وقال الزجاج "معنى الكلام فقد عقد لنفسه عقداً وثيقاً"[٢]. وقال ابن جرير الطبري "والعروة في هذا المكان مثل للإيمان الذي اعتصم به المؤمن فشبهه في تعلقه به وتمسكه به بالمتمسك بعروة الشيء الذي له عروة يتمسك بها إذ كان كل ذي عروة فإنما يتعلق من أراده بعروته، وجعل تعالى ذكره الإيمان الذي تمسك به الكافر بالطاغوت المؤمن بالله من أوثق عرى الأشياء بقوله الوثقى، فعُلى من الوثاقة يقال في الذكر هو الأوثق وفي الأنثى هي الوثقى كما يقال فلان الأفضل وفلانة الفضلى"[٣].

ونقل الطبري بسنده عن مجاهد بأن المراد بالعروة الوثقى الإيمان، وعن السدي الإسلام، وعن ابن جبير والضحاك لا إله إلا الله. وهذه التفاسير عن السلف لا اختلاف بينها فإن الإيمان إذا أطلق شمل الإسلام، والإسلام إذا أطلق شمل الإيمان كما تقدم ولا إله إلا الله هي أصل الإسلام والإيمان، وكما جمع الله بين اشتراط الإيمان بالله والكفر بالطاغوت في التمسك بالإسلام والإيمان ولا إله إلا الله فقد جمع الله بين اشتراط الإيمان والعمل الصالح في النجاة من عذاب الله كما في قوله عز وجل (مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[٤]، وقوله (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)[٥]، وقوله (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى)[٦]. ونظائر هذا في القرآن كثير وشبيه بالآيات المتقدمات قوله تعالى (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)[٧].

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) زاد المسير ١/ ٣٠٦.

(٣) تفسير ابن جرير ٣/ ١٤.

(٤) المائدة: ٦٩.

(٥) الأنعام: ٤٨.

(٦) الكهف: ٨٨.

(٧) لقمان: ٢٢.

وهذه الآيات المتقدمات دلت على اشتراط العمل مع الإيمان، كما دلت آية البقرة على اشتراط الكفر بالطاغوت مع الإيمان فإذا فقد جنس العمل بطل الإيمان وإذا فقد الكفر بالطاغوت بطل الإيمان[1]. وبهذا يكون الكفر بالطاغوت ركناً للإيمان بالله تعالى وإذا انهدم هذا الركن انهدم الإيمان، ومما يدل على هذا قوله تعالى (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ)[2]، فالمراد التوبة من عبادة كل معبود سوى الله وتركها، وهذا هو معنى الكفر بالطاغوت فلو أن كافراً استمر على كفره ولم يتب منه وتلفظ بلا إله إلا الله وأقام الصلاة فإنه لا يخلى سبيله لأنه ما كفر بالطاغوت ولا تاب من عبادة غير الله، يقول ابن جرير (فإن تابوا يقول فإن رجعوا عما هم عليه من الشرك بالله وجحود نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأقاموا الصلاة يقول وأدوا ما فرض الله عليهم من الصلاة بحدودها وأعطوا الزكاة التي أوجبها الله عليهم في أموالهم أهلها فخلوا سبيلهم. يقول فدعهم يتصرفون في أمصاركم ويدخلون البيت الحرام إن الله غفور رحيم لمن تاب من عباده... وروى بسنده عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقها والله عنه راض"، قال وقال أنس هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل الله، قال الله (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ)[3]، قال توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى (فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)[4])[5].

ولذا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام بأنه ما اجتمع فيه عبادة الله وترك الشرك به كما في حديث أبي هريرة "... قال يا رسول الله ما الإسلام، قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان"[6]، قال النووي "وأما قوله صلى الله عليه وسلم لا تشرك به فإنما ذكره بعد العبادة لأن الكفار كانوا

(١) انظر قضية اشتراط حسن العمل في الإيمان في كتاب الصلاة لابن القيم ص٢٥ وما بعدها.

(٢) التوبة: ٥.

(٣) التوبة: ٥.

(٤) التوبة: ١١.

(٥) تفسير الطبري ٦/ ٥٦.

(٦) مسلم مع النووي ١/ ١٦٢.

يعبدونه سبحانه وتعالى في الصورة ويعبدون معه أوثاناً ويزعمون أنها شركاء فنفى هذا والله أعلم"[١].

قلت فالعبادة ذكرت في الحديث مقابل الإيمان بالله في آية البقرة والنهي عن الشرك ذكر في مقابلة الكفر بالطاغوت والاستمساك بالعروة الوثقى ذكر في مقابلة الإسلام، فلا إسلام مع عبادة خالطها الشرك ولا استمساك بالعروة الوثقى مع إيمان خالطه الإيمان بالطاغوت، فاشتراط الكفر بالطاغوت مع الإيمان كاشتراط ترك الشرك مع العبادة، واشتراط ترك الشرك مع العبادة ذكر في آيات وأحاديث كثيرة كقوله تعالى (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ)[٢]، وكقوله (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً)[٣]، وكقوله (أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً)[٤].

وأما الأحاديث فكحديث الأعرابي الذي عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال "يا رسول الله أو يا محمد أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار، قال فكف النبي صلى الله عليه وسلم ثم نظر في أصحابه ثم قال لقد وفق أو لقد هدي، قال كيف قلت قال فأعاد فقال النبي صلى الله عليه وسلم تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصل الرحم، دع الناقة"[٥]. ونظائره في السنة كثير ومن أصرحها قول الرسول صلى الله عليه وسلم "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله"[٦]. وهذا نص صريح في أن حرمة المال والدم متوقفة على قول لا إله إلا الله والكفر بما يعبد من دون الله فلا إله إلا الله في مقابل الإيمان في آية البقرة والكفر بما يعبد من دون الله في مقابل الكفر بالطاغوت، وعصمة الدم والمال في مقابل الاستمساك بالعروة الوثقى، فظهر أن الكفر بالطاغوت ركن الإيمان الذي ينهدم الإيمان بفقده وهذا أيضاً مثل قوله تعالى (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)[٧].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الرعد: ٣٦.

(٣) الأنعام: ١٥١.

(٤) آل عمران: ٦٤.

(٥) صحيح مسلم مع النووي ١/ ٧٣.

(٦) المصدر السابق

(٧) الزمر: ١٧.

فإن اجتناب عبادة الطاغوت مقابل الكفر بما يعبد من دون الله والإنابة إلى الله في مقابل من قال لا إله إلا الله وعصمة الدم والمال بالإسلام في مقابل لهم البشرى. ومثل هذا قوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[1]، فإن الذي وليه الطاغوت بمعنى أنه محبوبه ونصيره فإنه غير كافر به وإذا لم يكفر به فإنه يخرجه من النور وهو في مقابل الإسلام إلى الظلمات وهو في مقابل الكفر والدليل على هذا أنه خالد في النار ولا يخلد فيها إلا الكافر، فظهر أن من والى الطاغوت فقد هدم الإيمان وهدمه للإيمان بهدم ركنه وهو الكفر بالطاغوت ولا يمكن أن يجتمع الكفر بالطاغوت ومحبته ونصرته كما هو ظاهر في الآية الكريمة، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند تفسيره للتوحيد وذكر أموراً منها آية البقرة (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ)[2]، ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم (وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)[3]، وذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله، فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله، وفي قوله صلى الله عليه وسلم "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله"، وهذا من أعظم ما يبن معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه. فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها وياله من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع"[4].

قلت فهذا مما يوضح أن معنى الكفر بما يعبد من دون الله يعني الكفر بالطاغوت وأن ما تنفيه لا إله إلا الله هو عبادة الطاغوت وهو الشرك، وإذا كان الأمر كذلك فالكفر بالطاغوت من أعظم أركان الإيمان الذي أساسه وأصله شهادة أن لا إله إلا الله كما تقدم في حديث وفد عبد القيس الذي جاء فيه "أتدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا إله إلا الله... الحديث"[5] والتي يعبر عنها بالتوحيد ويعبر عنها بإفراد

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) البقرة: ١٦٥.

(٣) البقرة: ١٦٧.

(٤) مؤلفات ابن عبد الوهاب- القسم الأول- العقيدة ص٢٥.

(٥) صحيح البخاري ١/ ٨.

الله بالعبادة كما في حديث معاذ بن جبل لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال له إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى....الحديث"[1].

قال الشيخ الغنيمان في شرح هذا الحديث "قوله فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى اللام للأمر وإذا اقترنت بالفاء أو الواو فهي ساكنة في الغالب الأكثر، وقوله "إلى أن يوحدوا الله" ذكره في الزكاة بلفظ ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وفي رواية "فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله.." وهذه الروايات متفقة في المعنى فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله توحيد الله بالعبادة والبعد عن عبادة ما سواه، وهذا هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله الذي قال الله تعالى فيه (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا)[2]، والطاغوت كل ما عبد من دون الله كما قال مالك –رحمه الله– سواء أكان من البشر أو من الحجر أو من الشجر أو الحيوان أو الأضرحة والعتبات والكفر به الابتعاد عن عبادته التي هي طلب البركات فيه أو الشفاعات أو دفع البليات أو إنالة الحاجات أو التوجه إليه بالدعاء. ولا بد من بغضه وعداوته وعداوة عابديه ومقاطعتهم والتبري منهم"[3].

وبتأمل شروط قبول لا إله إلا الله من قائلها المستنبطة من الكتاب والسنة يتضح لنا كيف أن الكفر بالطاغوت ركن للإيمان بالله تعالى، يقول الشيخ حافظ حكمي[4]:

وبشروط سبعة قد قيدت	وفي نصوص الوحي حقاً وردت
فإنه لم ينتفع قائلها	بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول	والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة	وفقك الله لما أحبه[1]

(١) صحيح البخاري ٨/ ١٩٤.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) شرح كتاب التوحيد للغنيمان ١/ ٣٦.

(٤) الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، من علماء الجزيرة العربية، توفي عام ١٣٧٧ هـ، وله أكثر من عشرين مؤلفاً في العقيدة وغيرها. انظر عن مكانته وجهوده في تقرير العقيدة كتاب الشيخ حافظ الحكمي، تأليف أحمد بن علي علوش مدخلي.

قلت وشروط قبول لا إله إلا الله من قائلها هي من شروط التوحيد وهي شروط صحة الإيمان وهي شروط صحة العبادة وتحقيق هذه الشروط هو تحقيق الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فالشرط الأول العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً، وإذا لم يتحقق للناطق بها فإنه لا يكون كافراً بالطاغوت وكيف يكون كافراً بالطاغوت وهو لا يعلم هل يستحق شيئاً من العبادة أم لا، وهل العبادة مقصورة على الله أم يشركه فيها غيره، ولا شك أن العبد إذا لم يستر وينكر ويبغض ويتبرأ ويعادي صفات الطاغوت التي طغى بها أو ادعيت له وهو لا يستحقها لا يكون مؤمناً بالله، وإذا كان يجهل هذه الصفات فكيف يتصور منه الكفر بها. ولأجل ذلك قيد قبول الشهادة التي هي أصل الإيمان بالعلم كما قال سبحانه (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[٢]، وكما قال صلى الله عليه وسلم "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة"[٣].

والشهادة لا تكون مقبولة إلا بالعلم كما قال سبحانه (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[٤]، فنفى سبحانه أن تُقبل شفاعة أحد يوم القيامة إلا من شهد بالحق وهو يعلمه، فإن الله يقبل شفاعته بإذنه سبحانه، ولا شك أن الكافر لا تقبل له شفاعة أبداً فدل على أن الإيمان لا يتحقق إلا بالشهادة بالحق والعلم بما شهد به.

وكذلك الشرط الثاني اليقين المنافي للشك فإن من شك في معنى لا إله إلا الله زال عنه العلم الذي يكتسب به الإيمان، وإذا زال الإيمان حصل نقيضه الذي هو كفر وهو كفر الشك، وعلى هذا فلا يكون صاحبه كافراً بالطاغوت لأنه لم يوقن ببطلان عبادة الطاغوت ولم يوقن بانحصار العبادة في الله. ولذا قيد قبول الشهادة باليقين بما دلت عليه من نفي وإثبات كما قال سبحانه (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...الآية)[٥]، وقال صلى الله عليه وسلم "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة"[٦]. وقال صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة "... فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره

(١) معارج القبول ٢/ ٤١٨.

(٢)محمد: ١٩.

(٣) صحيح مسلم مع النووي ١/ ٢١٨.

(٤) الزخرف: ٨٦.

(٥) الحجرات: ١٥.

(٦) صحيح مسلم مع النووي ١/ ٢٢٤.

بالجنة.."[1]. فالبشارة بالجنة مشروطة بأن يقول لا إله إلا الله بيقين وليس بشك في مدلولها. ولذا قال أهل العلم، فالكفر الذي يخرج من الملة خمسة أنواع:

النوع الأول: كفر التكذيب، والدليل قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)[2].

النوع الثاني: كفر الإباء والاستكبار مع التصديق، والدليل قوله تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[3].

النوع الثالث: كفر الشك، وهو كفر الظن والدليل قوله تعالى (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً، لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً)[4].

النوع الرابع: كفر الإعراض، والدليل قوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ)[5].

النوع الخامس: كفر النفاق، والدليل قوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ)[6]، والنفاق الاعتقادي ستة أنواع: تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم أو تكذيب بعض ما جاء به أو بغض الرسول أو بغض ما جاء به الرسول أو المسرة بانخفاض دين الرسول أو الكراهية بانتصار دين الرسول[7]. فسبب أنواع الكفر المتقدمة هو الطاغوت فإذا فسد الإيمان بهذا الطاغوت ظهرت علاقة الكفر بالطاغوت بالإيمان، وسيأتي توضيح هذا فإن العبد إذا كان لا يعلم ما نفته لا إله إلا الله أو كان شاكاً فيه فإنه لا يحصل منه الكفر بالطاغوت بعلم ويقين، وإذا لم يحصل الكفر بالطاغوت انهدم الإيمان فدل على أن الكفر بالطاغوت ركن مهم في الإيمان بالله تعالى.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢٣٧.

(٢) العنكبوت: ٦٨.

(٣) البقرة: ٣٤.

(٤) الكهف: ٣٥-٣٨.

(٥) الأحقاف: ٣.

(٦) المنافقون: ٣.

(٧) انظر مجموعة التوحيد ٧-٩.

وأما شرط القبول وشرط الانقياد فهما داخلان في مسمى الرضى، ولا يؤمن العبد ولا تقبل منه لا إله إلا الله حتى يرضى بمدلولها نفياً وإثباتاً، ولا شك أن من رضي بالشيء يكون قد قبله وانقاد له، فإن امتنع عن قبوله والانقياد له فإنه غير راض به، قال الهروي في كلامه عن منزلة الرضى "وهم على ثلاث درجات: الدرجة الأولى رضى العامة وهو الرضى بالله رباً وتسخط عبادة ما دونه وهذا قطب رحى الإسلام وهو يطهر من الشرك". وقال ابن القيم في شرح هذه الدرجة الرضى بالله رباً أن لا يتخذ رباً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه، قال الله تعالى (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)[1]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما "سيداً وإلهاً" يعني فكيف أطلب رباً غيره وهو رب كل شيء. وقال في أول السورة (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)، يعني معبوداً وناصراً ومعيناً وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً)[2]، أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلاً مبيناً كافياً شافياً وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً"[3].

قلت ومن لم يرض لما دلت عليه لا إله إلا الله فإنه لا يقبلها ولا ينقاد لها ولا يتسخط عبادة غير الله التي هي عبادة الطاغوت، ومن لم يتسخط عبادة الطاغوت فإنه لم يكفر به ولم يتحقق له شرط القبول والانقياد فإن تسخط عبادة الطاغوت قبلت منه لا إله إلا الله، وبهذا يظهر كون الكفر بالطاغوت ركناً مهماً في الإيمان. ولا غرو أن يجعل الهروي هذا قطب رحى الإسلام الذي يُطهّر من الشرك الأكبر كما تقدم، وقد وافقه ابن القيم على هذا فقال "وقوله هو قطب رحى الإسلام يعني أن مدار رحى الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة ربه وحده وأن يسخط عبادة غيره" وقد تقدم أن العبادة هي الحب مع الذل، فكل من ذللت له وأطعته وأحببته دون الله فأنت عابد له، وقوله وهو يطهّر من الشرك الأكبر يعني أن الشرك نوعان أكبر وأصغر، فهذا الرضى يطهر صاحبه من الأكبر"[4].

ويقول الهروي عن شروط صحة الرضى بالله رباً "وهو يصح بثلاثة شروط أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة"، ويشرح

(١) الأنعام: ١٤.

(٢) الأنعام: ١١٤.

(٣) مدارج السالكين: ٢/١٨١.

(٤) المصدر السابق: ١/ ١٨٢.

ابن القيم كلام الهروي فيقول "... فالرضى به رباً متعلق بذاته وصفاته وأسمائه وربوبيته العامة والخاصة، فهو الرضى به خالقاً ومدبراً وآمراً وناهياً وملكاً ومعطياً ومانعاً وحكماً ووكيلاً وولياً وناصراً ومعيناً وكافياً وحسيباً ورقيباً ومبتلياً ومعافياً وقابضاً وباسطاً إلى غير ذلك من صفات ربوبيته... وأيضاً فالرضى به رباً يتضمن توحيده وعبادته، والإنابة إليه والتوكل عليه وخوفه ورجاءه ومحبته والصبر له وبه والشكر على نعمه يتضمن رؤية كل ما منه نعمة وإحساناً وإن ساء عبده فالرضى به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله، والرضى بمحمد رسولاً يتضمن شهادة أن محمداً رسول الله، والرضى بالإسلام ديناً يتضمن التزام عبوديته وطاعته رسوله فجمعت هذه الثلاثة الدين كله، وأيضاً فالرضى به رباً يتضمن اتخاذه معبوداً دون سواه واتخاذه ولياً وإبطال عبادة كل ما سواه، وقال تعالى لرسوله (أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً)[1]، وقال (أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً)[2]، وقال (قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)[3]. فهذا عين الرضا به رباً[4].

وقال عليه رحمة الله "وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد أن لا يتخذ سواه رباً ولا إلهاً ولا غيره حكماً"[5]. فعلى هذا من لم يرض بالله رباً فهو كافر بالله مؤمن بالطاغوت ومن لم يرض بالله إلهاً فهو كافر بالله مؤمن بالطاغوت، ومن لم يرض بالله حكماً فهو كافر بالله مؤمن بالطاغوت لأنه قد فرط في أركان التوحيد والركن إذا فقد فقد الشيء.

ولذا جعل ابن القيم من لم يرض بتحكيم الله ورسوله في موارد النزاع ليس من المسلمين أصلاً فهو يقول "فالرضى بالقضاء الديني الشرعي واجب وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضياً به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض، قال الله تعالى (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً)[6]، فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يُحكموا رسوله وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه وحتى يسلموا لحكمه تسليما، وهذا حقيقة الرضى بحكمه، فالتحكيم في مقام الإسلام وانتفاء الحرج في مقام الإيمان والتسليم في مقام الإحسان"[7]. فقول ابن القيم "فالتحكيم في مقام الإسلام يدل على أنه يرى أن التحكيم إذا فُقِد عند

(١) الأنعام: ١١٤.

(٢) الأنعام: ١٤.

(٣) الأنعام: ١٦٤.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ١٨٤.

(٥) المصدر السابق ٢/ ١٨٢.

(٦) النساء: ٦٥.

(٧) مدارج السالكين ٢/ ١٩١.

إنسان بحيث لا يرضى بتحكيم الله ورسوله في شيء من شؤون حياته فإن الإسلام قد فقد عنده وهذا الذي قرره ابن القيم، تدل عليه آيات كثيرة في القرآن الكريم من أصرحها قوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً، أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً، فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً، أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً، وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً، فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً)[١].

قال ابن حجر عن سبب نزول هذه الآيات "فروى ابن إسحاق بن راهوية في تفسيره بإسناد صحيح عن الشعبي قال كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فدعا اليهودي المنافق إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه علم أنه لا يقبل الرشوة ودعا المنافق اليهودي إلى حكامهم لأنه علم أنهم يأخذونها، فأنزل الله هذه الآيات إلى قوله ويسلموا تسليماً"، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد نحوه، وروى الطبري بإسناد صحيح عن ابن عباس أن حاكم اليهود يومئذ كان أبا برزة الأسلمي قبل أن يسلم ويصحب. ورُوي بإسناد آخر صحيح إلى مجاهد أنه كعب بن الأشرف. وقد روى الكلبي في تفسيره عن أبي صالح عن ان عباس قال نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة فقال اليهودي انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق بل نأتي كعب بن الأشراف، فذكر القصة وفيه أن عمر قتل المنافق وأن ذلك سبب نزول هذه الآيات وتسمية عمر الفاروق، وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً لكن تقوّى بطريق مجاهد ولا يضره الاختلاف لإمكان التعدد[٢].

قلت وقصة قتل عمر بن الخطاب للمنافق الذي لم يرض بحكم الله ورسوله والتي أشار إليها ابن حجر آنفاً أوردها ابن تيمية في كتابه الصارم المسلول محتجاً بها فقال "فإذا كان النفاق يثبت ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره مع أن

(١) النساء: ٥٩-٦٥.

(٢) الفتح ٥/ ٢٨-٢٩.

هذا ترك محض، وقد يكون سببه قوة الشهوة فكيف بالنقص والسب ونحوه، ويؤيد ذلك ما رواه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن بن دحيم في تفسيره حدثنا شعيب بن شعيب حدثنا أبو المغيرة حدثنا عتيبة بن ضمرة حدثني أبي عن رجلين اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى للمحق على المبطل فقال المقضي عليه لا أرضى فقال صاحبه فما تريد قال نذهب إلى أبي بكر الصديق فذهبا إليه فقال الذي قُضِي له قد اختصمنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى لي عليه فقال أبو بكر فأنتما على ما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم فأبى صاحبه أن يرضى وقال نأتي عمر بن الخطاب فأتياه فقال المقضي له قد اختصمنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى لي عليه فأبى أن يرضى ثم أتينا أبا بكر الصديق فقال أنتما على ما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أن يرضى فسأل عمر فقال كذلك فدخل عمر منزله فخرج والسيف في يده قد سله فضرب به رأس الذي أبى أن يرضى فقتله، فأنزل الله تبارك وتعالى (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ). وهذا المرسل له شاهد من وجه آخر يصلح للاعتبار، قال ابن دحيم حدثنا الجوزجاني حدثنا أبو الأسود حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير"[1] فذكر قصة مشابهة لما تقدم مع وجود بعض الاختلاف، وقد رويت هذه القصة من غير هذين الوجهين، وذكر البخاري أن الزبير يحسب أن سبب نزول الآيات خصومة وقعت بينه وبين رجل من الأنصار فلما حكم الرسول صلى الله عليه وسلم للزبير قال الأنصاري أن كان ابن عمتك[2].

غير أن ابن جرير الطبري شيخ المفسرين يرجح أن سبب نزول الآيات القصة السابقة المتعلقة بعدم رضى المنافق بحكم الله ورسوله، قال ابن حجر "ورجح الطبري في تفسيره وعزاه إلى أهل التأويل في تهذيبه أن سبب نزولها هذه القصة ليتسق نظام الآيات كلها في سبب واحد، قال ولم يعرض بينها ما يقتضي خلاف ذلك، ثم قال ولا مانع أن تكون قصة الزبير وخصمه وقعت في أثناء ذلك فيتناولها عموم الآية"[3].

ومما تقدم يتضح بجلاء بأن من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله في أي شيء من شؤون حياته إنما يكون مؤمناً بالطاغوت محكماً له كافراً بالله عز وجل فإن كل من آمن بالطاغوت فهو كافر بالله لا محالة، يقول الطبري عند تفسير قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ)[4]، يعني بذلك جل ثناؤه ألم تر بقلبك يا محمد إلى الذين

(١) انظر الصارم المسلول ص٣٨-٣٩.

(٢) انظر صحيح البخاري مع الفتح ٥/ ٢٦، وتعليقات مفيدة لابن حجر وغيره على هذه القصة.

(٣) الفتح ٥/ ٢٩، وقارن بتفسير الطبري ٤/ ١٠١.

(٤) النساء: ٥١.

أعطوا حظاً من كتاب الله فعلموه يؤمنون بالجبت والطاغوت يعني يصدقون بالجبت والطاغوت ويكفرون بالله وهم يعلمون أن الإيمان بهما كفر والتصديق بهما شرك[1].

فهذا الطبري قد نص صراحة بأن الإيمان بالطاغوت كفر والتصديق به شرك، وبهذا يظهر أن الرضى بغير شريعة الله حكماً بين العباد، إنما هو شرك وكفر لأنه رضى بالطاغوت الذي أمر العباد بالكفر به.

يقول ابن القيم مبيناً أن رد التنازع إلى غير شريعة الله مضاد للإيمان أخذاً من قوله تعالى (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)[2]، "جعل هذا الرد من موجبات الإيمان ولوازمه فإذا انتفى هذا الرد انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ولا سيما التلازم بين هذين الأمرين فإنه من الطرفين وكل منها ينتفي بانتفاء الآخر"[3].

ومثل قول ابن القيم قول الشيخ محمد بن إبراهيم "فإنه لا يجتمع التحاكم إلى غير ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم مع الإيمان في قلب عبد أصلاً بل أحدهما ينافي الآخر"[4]. إذاً فالطاغوت هو المعبود من دون الله وهو المتحاكم إليه من دون الله كما جاء في الآية السابقة (يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ)[5]، وكما في قول جابر رضي الله عنه الذي رواه البخاري "كانت الطواغيت التي يتحاكمون إليها في جهينة واحد وفي أسلم واحد وفي كل حي واحد كهان ينزل عليهم الشيطان"، وكما في قول مجاهد "والطاغوت الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم"[6].

ومما تقدم يظهر أن شرط الرضى بما دلت عليه لا إله إلا الله من أعظم الشروط وأنه يستلزم الرضى بالله رباً وإلهاً وحاكماً وأن من لم يرض بأحد هذه الثلاثة التي هي أركان التوحيد إنما هو مؤمن بالطاغوت لا كافر به وأن إيمانه لا يصح لفوات أحد أركانه بل إن النصوص المتكاثرة الدالة على كفر من لم يرض بالله رباً وإلهاً وحاكماً تدل على أن الكفر

---

(١) تفسير الطبري ٤/ ٨٣.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) إعلام الموقعين ١/ ٥٠.

(٤) انظر رسالة تحكيم القوانين لابن إبراهيم

(٥) النساء: ٦١.

(٦) تفسير الطبري ٤/ ٨٣.

بالطاغوت ركن عظيم من أركان الإيمان وهو المقصود هنا من بيان العلاقة بين الإيمان وبين الكفر بالطاغوت.

وأما شرط الصدق القلبي في قبول لا إله إلا اله من قائلها فيدل عليه قول الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ)[١]، فإن هؤلاء أعلنوا الإسلام والتصديق به بألسنتهم ولكن قلوبهم غير مصدقة فنفى الله عنهم الإيمان. وتصديق القلب يشمل أمرين الأول: العلم بالحق، والثاني: الإقرار به وإنشاء الالتزام بمدلوله، وكلا الأمرين شرط في قبول لا إله إلا الله فإن من كذب بقلبه فهو المنافق الذي يظهر ما لا يبطن ومن صدق بقلبه وعلم الحق ولكنه لم يقرّ به ولم يقم بقلبه إنشاء الالتزام بمدلول اللفظ الذي يتلفظ به فهو المستكبر حتى وإن أظهر الخضوع بلسانه ما دام أن قلبه مصمم على عدم الخضوع للحق متى سنحت له أي فرصة فهو يبطن مخالفة ما دلت عليه لا إله إلا الله حسداً أو كبراً أو شهوة أو خوفاً على مصالح الدنيا، يقول ابن تيمية: "والكفر تارة يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما أخبر به وتارة بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به"[٢].

ويشهد لهذا ما رواه أحمد في مسنده عن صفوان بن عسال قال يزيد المرادي قال قال يهودي لصاحبه اذهب بنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال يزيد إلى هذا النبي صلى الله عليه وسلم حتى نسأله عن هذه الآية (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ)[٣] فقال لا تقل له نبي فإنه إن سمعك لصارت له أربعة أعين. فسألاه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة أو قال تفروا من الزحف، شعبة الشاك، وأنتم يا يهود عليكم خاصة أن لا تعتدوا، قال يزيد تعتدوا في السبت فقبّلا يده ورجله، قال يزيد فقّلا يديه ورجليه وقالا نشهد أنك نبي، قال فما يمنعكما أن تتبعاني قالا إن

(١) البقرة: ٨.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٥٣٤.

(٣) الإسراء: ١٠١.

داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبي وإنا نخشى، قال يزيد إن أسلمنا أن تقتلنا يهود"[١].

فهذان اليهوديان مصدقان وشهدا بألسنتهما بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم ولكن هذه الشهادة لم تكن منهما لإنشاء الالتزام بنبوته وإنما من باب العلم والخبر المجرد.

وقد ذكر ابن القيم قصة وفد نجران وفيها إقرار الأسقف بأنه نبي مرسل. ثم ذكر الفقه المستنبط من هذه القصة "... وفيها أن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه نبي لا يدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فإذا تمسك بدينه بعد هذا الإقرار لا يكون ردة منه ونظير هذا قول الحبرين له وقد سألاه عن ثلاث مسائل فلما أجابهما قالا نشهد أنك نبي الله، قال فما يمنعكما من اتباعي قالا نخاف أن تقتلنا اليهود ولم يلزمهما بذلك الإسلام. ونظير ذلك شهادة عمه أبي إطالب له بأنه صادق وأن دينه من خير أديان البرية ديناً. ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له صلى الله عليه وسلم بالرسالة وأنه صادق فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام علم أن الإسلام أمر وراء ذلك وأنه ليس هو المعرفة فقط ولا المعرفة، والإقرار فقط بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً".

وقلت وإذا فقد التصديق بالمعنيين السابقين لم يحصل الإيمان لانهدام ركنه وهو الكفر بالطاغوت الصارف للعبد عن التصديق بالمعنيين السابقين أياً كان جنس هذا الطاغوت سواء أكان الشيطان أو الشهوة أو الهوى أو غير ذلك، وبذلك يظهر للعبد أهمية الكفر بالطاغوت وعلاقته بالإيمان.

وهذا التصديق الذي هو شرط في صحة الإيمان وفي صحة قبول لا إله إلا الله من قائلها هو الذي عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله من قائلها هو الذي عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله "ما من حد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار... الحديث"[٢]. ويلحق بهذا

---

(١) مسند أحمد ٤/ ٢٣٩، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٥٣٥/٨، وقال الترمذي وهذا حديث حسن صحيح، وفي الحديث إشكال أجاب عنه ابن كثير ٥/ ١٢٤ في تفسيره، وهذا الإشكال لا يؤثر على دلالة الحديث.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٤١، وصحيح مسلم ١/ ٢٢٩.

التصديق اللساني وهو التلفظ بالتوحيد والبراءة مما يناقضه من عبادة الطاغوت وطاعته، وهو شرط في الإيمان كما وضحناه سابقاً ونقلنا الإجماع على ذلك.

وأما شرط الإخلاص في قبول لا إله إلا الله من قائلها فأدلته كثيرة جداً ومنها قوله تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء)[١]، وقوله صلى الله عليه وسلم "أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه"، وقوله صلى الله عليه وسلم "فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"[٢]، وضد الإخلاص الشرك وهو عبادة الطاغوت لأن الطاغوت كما تقدم كل ما عبد من دون الله، فشرط الإخلاص يلزم منه الكفر بالطاغوت لا محالة والإخلاص هو إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، وهذا الترك هو الكفر بالطاغوت فتبين من هذا أن الكفر بالطاغوت ركن مهم للإيمان لا يصح بدونه.

وصور الشرك المضادة للإخلاص كثيرة جداً فمنها ما يضاد توحيد الألوهية وهو إفراد الله بأفعال المكلفين بمعنى أن أفعال المكلفين من أفعال القلب واللسان والجوارح التي أمر الله بها أو أمر بها رسوله صلى الله عليه وسلم لا بد أن يخلص العبد فيها لله ولا يصرف شيئاً منها لغير الله، فأفعال القلب مثل الحب والتعظيم والخوف والرجاء والرغبة والرهبة والإنابة والتوكل وأفعال اللسان مثل الذكر والدعاء والاستغاثة والاستعانة وأفعال الجوارح مثل الصلاة الصيام والزكاة والذبح والنذر والحج ونحو ذلك فجميع هذه الأفعال وما شاكلها إخلاصها لله عبادة وكفر بالطاغوت وصرف شيء منها لغير الله شرك وإيمان بالطاغوت.

وأما ما يضاد توحيد الربوبية وهو إفراد الله بأفعاله وأسمائه وصفاته، فهو شرك في الربوبية فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر المعطي المانع الضار النافع الخافض الرافع المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع أو الضار أو النافع أو المعز أو المذل غيره سبحانه فقد أشرك بربوبيته[٣]، وكذلك من أثبت حقائق أسماء الله وصفاته لأحد من خلقه كأن يثبت لمخلوق علم الغيب المطلق أو العلم الكامل أو القدرة الكاملة أو الحكمة التامة أو العزة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه أو الحياة الكاملة التي لا يعتريها موت ولا نوم ولا سنة ونحو ذلك، فإن هذا قد أشرك في أسماء الله وصفاته ولم يخلص أسماء الكمال وصفات الباري له سبحانه. ومن هذه حاله فإن الذي أثبت له ما يختص الله به إنما هو طاغوت بالنسبة له وهو بهذه الحالة لم

---

(١) البينة: ٥.

(٢) صحيح البخاري

(٣) ....

يكفر بالطاغوت وإنما آمن به ومن آمن بالطاغوت انهدم إيمانه لا محالة لأن ركن الإيمان الكفر بالطاغوت وهو لم يحققه. والتأمل في صور الشرك السابقة المضادة للإخلاص يوضح معنى الكفر بالطاغوت ويوضح مكانته من الإيمان بالله تعالى.

وأما شرط المحبة في قبول لا إله إلا الله من قائلها فإنه من أعظم الشروط على الإطلاق، قال تعالى: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)[1]، وقال رسول صلى الله عليه وسلم "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار"[2].

يقول ابن القيم عن منزلة المحبة من الدين "وهي الحق الذي به خلقت السموات والأرض وهي الحق الذي تضمنه الأمر والنهي وهي سر التأليه وتوحيدها هو شهادة أن لا إله إلا الله وليس كما زعم المنكرون أن الإله هو الرب الخالق فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله ولا خالق سواه وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية ولم يكونوا مقرين بتوحيد الألوهية وهو المحبة والتعظيم بل كانوا يؤلهون مع الله غيره وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله وصاحبه ممن اتخذ من دون الله أنداداً، قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ)[3]، فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبت هذا الند في الربوبية بخلاف ند المحبة فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم ثم قال (وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً)، وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من محبة المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها والمحبة الخالصة أشد من المشتركة والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ) فإن فيها قولين:

(١) التوبة: ٢٤.

(٢) صحيح البخاري ٩/١.

(٣) البقرة: ١٦٥.

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله ثم يبين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجع القول الأول ويقول إنما ذُموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلهتم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[١]، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ)[٢]. أي يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

وقد ذكر ابن كثير في معنى قوله (إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أي نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين[٣]. قلت ولا منافاة بين ما ذكره ابن القيم وما ذكره ابن كثير فإنهم ما خضعوا لأمرهم واستسلموا له وقدموه على غيره إلا لما يجدونه في قلوبهم من المحبة والتعظيم لهم. وبهذا يتضح لنا أن المحبة لما دلت عليه لا إله إلا الله من قصر العبادة على الله ونفيها عمن سواه شرط في قبول لا إله إلا الله من قائلها وإذا فقد هذا الشرط فقد الإيمان، ولأن نقيض المحبة هو الكره والبغض والعداوة والبراءة، فمن أفرد الله بالمحبة جعل نقيضها للطاغوت، وهذا معنى الكفر بالطاغوت كما تقدم فيحصل له الإيمان، فإن أشرك الطاغوت في المحبة مع الله ارتفع نقيضها عنه وبالتالي ارتفع الكفر بالطاغوت من أعماله ففسد إيمانه وبطل بسبب الشرك في المحبة، فتبيّن لنا من هذا أن الكفر بالطاغوت ركن مهم في الإيمان لا يتحقق الإيمان دونه.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب "... إن الإنسان لا يستقيم له دين ولا إسلام ولو وحّد الله وترك الشرك إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغضاء"[٤]. ويقول الشيخ

(١) الشعراء: ٩٧-٩٨.

(٢) الأنعام: ١.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٦٠.

(٤) الدرر السنية ٧/ ٥٢.

عبد اللطيف بن عبد الرحمن[١] "... إن بعض من يتولى خدمة من حاد الله ورسوله يُحَسِّن أمرهم ويُرغِّب في ولايتهم ويقدح في أهل الإسلام وربما أشار بحربهم، فإذا قَدِم بعض بلاد أهل الإسلام تلقاه منافقوها وجهالها بما لا يليق إلا مع خواص الموحدين. ففافهم أسباب الشرك ووسائله، ومن كان في قلبه حياة وله رغبة وله غيرة وتوقير لرب الأرباب يأنف ويشمئز مما هو دون ذلك، ولكن الأمر كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما تُنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وما جاء في القرآن من النهي والتغليظ والتشديد في موالاتهم وتوليهم دليل على أن أصل الأصول لا استقامة له ولا ثبات له إلا بمقاطعة أعداء الله وحربهم وجهادهم والبراءة منهم والتقرب إلى الله بمقتهم وعيبهم، وقد قال تعالى لما عقد الموالاة بين المؤمنين وأخبر أن الذين كفروا بعضهم أولياء بعض قال (إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)[٢]، وهل الفتنة إلا الشرك والفساد الكبير هو انتثار عقد التوحيد والإسلام وقطع ما أحكمه القرآن... وقال تعالى (لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً)[٣]، وقد جزم ابن جرير في تفسير بكفر من فعل ذلك.. فليتأمل من نصح نفسه هذه الآيات الكريمات وليبحث عما قاله المفسرون وأهل العلم في تأويلها وينظر ما وقع من أكثر الناس اليوم فإنه يتبين له إن وفّق وسُدّد أنها تتناول من ترك جهادهم وسكت عن عيبهم وألقى إليهم السلم فكيف بمن أعانهم أو جرهم على بلاد أهل الإسلام أو أثنى عليهم أو فصلهم بالعدل على أهل الإسلام واختار ديارهم ومساكنتهم وولايتهم وأحب ظهورهم، فإن هذا ردة صريحة بالاتفاق. قال الله تعالى (وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[٤]".

ومثل المحبة الطاعة كما تقدم عن ابن كثير فإن الذي يطيع المخلوق كما يطيع الخالق أي طاعة فيها ذل وخضوع وتعظيم ومحبة واستسلام بحيث لا يعارض أمره بأمر غيره فإنه لم يكفر بالطاغوت، وإذا لم يكفر بالطاغوت انهدم إيمانه لفقد ركن منه، وهذا كحال أهل الكتاب الذين قال الله عنهم (اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ)[٥]، ومما يبين عظيم

(١) هو الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من علماء نجد، له ردود ورسائل في العقيدة، توفي عام ١٢٩٣هـ، انظر علماء نجد للبسام ١/ ٦٣.

(٢) الأنفال: ٧٣.

(٣) آل عمران: ٢٨.

(٤) المائدة: ٥.

(٥) التوبة: ٣١.

منزلة المحبة في الإيمان أن من أبغض الرسول صلى الله عليه وسلم أو أبغض بعض ما جاء به أو كره أن ينتصر دين الرسول صلى الله عليه وسلم أو استهزأ بشيء منه فقد كفر كفراً أكبر[1]، ولا شك أن من هذه حاله لم يكفر بالطاغوت وهو هواه الباطل المصادم للحق، وبهذا ينهدم إيمانه.

ومما يزيد هذا الأمر إيضاحاً أن الله تبارك وتعالى ذكر في كتابه الكريم بأساليب متعددة ما يدل على أن الكفر بالطاغوت ركن في الإيمان، ومن هذه الأساليب:

أسلوب الشرط كقوله تعالى (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا)[2].

ومنها الإخبار بأن من لم يكفر بالطاغوت يكون إيمانه مزعوماً لا حقيقة له كقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ)[3].

ومنها الإخبار بأن البشرى خاصة بمن كفر بالطاغوت ومن لا بشرى له على الإطلاق لا يكون إلا كافراً فهو الذي يخلد في النار أبداً ولا تحصل له بشرى مطلقاً، قال تعالى (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ)[4].

ومنها الإخبار بأن من أثنى على الطاغوت ولو بلسانه فإنه مؤمن به والمؤمن به ضد الكافر به، وكذلك حكم المؤمن بالطاغوت ضد حكم الكافر به. فحكم الكافر بالطاغوت الاستمساك بالعروة الوثقى، وحكم المؤمن به الانخلاع من العروة الوثقى. ومن انخلع من العروة الوثقى وهي شهادة أن لا إله إلا الله وباينها فإنه كافر لا محالة، قال سبحانه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء

(١) انظر مجموعة التوحيد: ٥/ ٣٨.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) النساء: ٦٠.

(٤) الزمر: ١٧.

أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً)[1]، وسبب نزول الآيات قول زعماء اليهود الذين فضلوا الشرك والمشركين من كفار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه[2].

ومنها الإخبار بأن الكفار أوليائهم الطاغوت وأنهم يقاتلون في سبيله كقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ)[3]، وكقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ)[4].

فإذا كان من أحب الطاغوت ونصره وقاتل في سبيله واتخذه ولياً يكون عابداً له لا محالة، اتضح أنه لا يصح الإيمان إلا بالكفر بالطاغوت، فإن من عبد شيئاً وأطاعه فهو قد اتخذه ولياً حتى ولو لم يشعر بذلك، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً)[5]. وكقوله تعالى (وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً)[6]. فإن أبا إبراهيم ما كان يظن أنه يعبد الشيطان ولكنه في الحقيقة عابد له وهو لا يشعر.

ومنها الإخبار بأن جميع الأنبياء اتفقوا على الأمر باجتناب الطاغوت، وفُسِّر هذا الاجتناب في آيات أخر بأنه اجتناب الشرك. ولا شك أن اجتناب الشرك ركن مهم في الإيمان لا يصح الإيمان بدونه، قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ)[7]، وقال سبحانه (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ)[8]. وتحريم الجنة على المشركين عام ليس خاصاً بأمة من الأمم، فكل أمة مأمورة بالتوحيد واجتناب الشرك، فقد اتفق الأنبياء على التحذير من الشرك وهو الطاغوت الذي أمروا باجتنابه كما تقدم إيضاحه.

ومن هذه الأساليب أساليب الحصر الموضحة بأن العبادة بكاملها حق لله وأن من صرف شيئاً منها لغير الله يكون قد أعطى غير الله بعض خصائص الله وهذا هو الإيمان

---

(١) النساء: ٥١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/٢٩٥.

(٣) البقرة: ٢٥٧.

(٤) النساء: ٧٦.

(٥) مريم: ٤٤-٤٥.

(٦) النساء: ١١٩.

(٧) النحل: ٣٦.

(٨) المائدة: ٧٢.

بالطاغوت لا الكفر به، وإذا حصل الإيمان بالطاغوت فُقِد الإيمان لفقد ركنه وهو الكفر بالطاغوت. فمن أساليب الحصر تقديم ما حقه التأخير كقوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)، وقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)[1]، وأسلوب الاستثناء بعد النفي كقوله تعالى (وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً)[2]، وقوله سبحانه (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ)[3].

وتقديم أداة الحصر كقوله (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)[4]، وقوله (إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ)[5]، ومثل هذه الأساليب في القرآن الكريم كثيرة جداً وكلها تبين بجلاء أن الكفر بالطاغوت ركن الإيمان وأنه لا يجتمع الإيمان بالله والإيمان بالطاغوت في قلب عبد أبداً، بل إذا حل هذا رحل هذا.

وبمثل ما جاء في القرآن الكريم جاء في السنة الصحيحة كالأحاديث التي اشترطت الكفر بما عبد من دون الله لدخول الجنة أو اشترطت الإخلاص أو خلع الأنداد وكسر الأوثان والبراءة منها ومن أهلها مما تقدمت الإشارة إلى طرف منه في الفصول المتقدمة.

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) آل عمران: ٦٢.

(٤) الأنعام: ١٩.

(٥) النساء: ١٧١.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج

١- إن العلم بحقائق المسميات العقدية شرط في صحة العمل بها.

٢- إن الجاهل بحقائق المسميات العقدية يفوته الحق حتى ولو رغب فيه.

٣- كثرة النصوص الشرعية المبيّنة لفضل العلم ومكانته خاصة بحقائق المسميات العقدية.

٤- إن الخير مرتبط بالفقه في الدين (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)

٥- إن سبب الانحراف في الأمم إما الجهل بالحق أو الرغبة عنه.

٦- إن الرعيل الأول ساروا على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في العلم والعمل، وأزالوا كل لبس أُحدث حول الحقائق العقدية.

٧- إن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله وأن للطواغيت رؤوساً شرهم عظيم وخطرهم جسيم.

٨- إن عبادة المشركين للملائكة والأنبياء والصالحين لا ينقص من قدرهم ولا يضرهم عند الله تبارك وتعالى، وعبادة المشركين إنما تقع في الحقيقة على الشيطان الآمر بها.

٩- إن اختلاف تفاسير السلف للحقائق الشرعية إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

١٠- إن الحقائق الشرعية يكفي فيها بيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

١١- إن الكفر بالطاغوت يعني البراءة منه وبغضه وعداوته وإنكار عبادته وعدم طاعته.

١٢- إن الكفر لا بد أن يكون بالقلب واللسان والجوارح.

١٣- إن الأنبياء جميعاً قد بينوا كيفية الكفر بالطاغوت وأمروا باجتناب عبادة الطواغيت.

١٤- كثرة النصوص الشرعية المنفرة من عبادة الطاغوت بأساليب متنوعة.

١٥- إن تشريع جهاد الكفار من أعظم ما يبيّن معنى الكفر بالطاغوت.

١٦- إن الكفر بالطاغوت من أعظم أركان الإيمان.

١٧- إن الإيمان بالله والإيمان بالطاغوت لا يجتمعان في قلب عبد أبداً.

١٨- إن أصل الإيمان أعمال القلوب، فكذلك الكفر بالطاغوت بالقلب أصل عظيم فيه.

١٩- إن شروط قبول لا إله إلا الله من قائلها من أعظم ما يبين العلاقة بين الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

٢٠- كثرة الأساليب القرآنية المبينة لعلاقة الإيمان بالكفر بالطاغوت، وكذلك الأحاديث النبوية ولكن لا يعقلها إلا العالمون.

فهرس المصادر

- القرآن الكريم.

- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، تأليف محمد بن ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، عام ١٣٩٩هـ.

- إعلام الموقعين عن رب العالمين، تأليف محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، نشر دار الجيل، بيروت، عام ١٩٧٣م.

- البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، الطبعة الثانية، عام ١٩٧٧م، دار الفكر ومكتبة المعارف ببيروت.

- تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي، لمحمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، تصحيح عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، الطبعة الثالثة، عام ١٣٩٩هـ.

- تحكيم القوانين، للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الطبعة الثانية، الرياض، عام ١٤٠٣هـ.

- ترتيب القاموس المحيط على طريق المصباح المنير وأساس البلاغة، تأليف الأستاذ: الطاهر أحمد الزاوي، نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية.

- تفسير غريب القرآن، لعبد الله بن مسلم بن عتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية ببيروت، عام ١٣٩٨هـ.

- تفسير الطبري المسمى "كتاب جامع البيان في تفسير القرآن"، لابن جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر ببيروت، ١٣٩٨هـ.

- تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا وزميليه، طباعة دار الشعب.

-تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر.

– جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً، لابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت.

– الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ، نشر دار الإفتاء، السعودية.

– زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.

– زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط وأخيه عبد القادر، مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، الطبعة الثانية، عام ١٤٠١هـ.

– سنن ابن ماجه، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥هـ.

– سنن البيهقي، دار الفكر في بيروت، (المسمى السنن الكبرى)، وبذيله الجوهر النقي لابن التركماني.

– السنة، للحافظ اللالكائي (المسمى شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)، تحقيق أحمد سعد حمدان، الطبعة الأولى، نشر دار طيبة بالرياض، ١٤١٥هـ.

– السيرة النبوية الصحيحة، تأليف أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، ١٤١٢هـ.

– شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، تأليف عبد الله بن محمد الغنيمان، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٥هـ، توزيع مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

– الشيخ حافظ حكمي، تأليف أحمد بن علي علوش مدخلي، مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى، عام ١٤١٤هـ.

– الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

– الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية، عام ١٤٠٢هـ.

– صحيح البخاري، المكتبة الإسلامية باستنبول، عام ١٩٧٩م.

– صحيح مسلم بشرح النووي، الطبعة الثانية، عام ١٣٩٢هـ، نشر دار إحياء التراث العربي ببيروت.

– صحيح سنن ابن ماجه، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، عام ١٤٠٨هـ، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج.

– صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٩هـ، نشر مكتبة التربية العربي لدول الخليج.

– صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٨هـ، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج.

– الصلاة وحكم تاركها، لابن قيم الجوزية، بتحقيق تيسير زعيتر، نشر المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، عام ١٤٠١هـ.

– عدة الصابرين ذخيرة الشاكرين، لابن القيم، تعليق زكريا علي يوسف، مطبعة الإمام.

– العرب والإسلام، لأبي الحسن الندوي، المكتب الإسلامي، عام ١٣٨٠هـ، الطبعة الثانية.

– عون المعبود شرح سنن أبي داود، لمحمد شمس الحق العظيم أبادي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، نشر المكتبة السلفية، عام ١٣٩٦هـ، الطبعة الثالثة.

– غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي، تحقيق د. سليمان العايد، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٥هـ، نشر مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى.

– فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جمع أحمد عبد الرزاق الدويش، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث بالسعودية، عام ١٤١١هـ.

– فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة للنشر ببيروت، الطبعة الثانية.

– فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، نشر المكتبة السلفية، الطبعة السادسة، عام ١٣٩٧هـ، بتعليق الشيخ بن باز.

- فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، لصالح بن عبد الله العبود، نشر دار طيبة بالرياض.

- قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين، للشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الوهاب، الناشر مكتبة الرياض الحديثة.

- القول المفيد على كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، الطبعة الأولى، عام ١٤١٥هـ،، الناشر دار العاصمة بالرياض.

- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، نشر دار صادر ببيروت.

- المتواري على تراجم أبواب البخاري، لناصر الدين أحمد بن محمد المعروف بابن المنير، تحقيق صلاح الدين مقبول أحمد، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٧هـ، نشر مكتبة المعلا بالكويت.

- مجموعة التوحيد، جمع محمد بن عبد العزيز بن مانع، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لعبد الحق بن عطية الغرناطي، تحقيق أحمد صادق الملاح، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

- المحلى، لابن حزم، دار الآفاق الجديدة ببيروت.

- مختصر صحيح مسلم، للحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية، عام ١٣٩٢هـ، المكتب الإسلامي ودار العربية، بيروت.

- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة، لابن القيم، اختصره محمد بن الموصلي، نشر إدارات البحوث العلمية بالسعودية.

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي، عام ١٣٧٥هـ، مطبعة السنة المحمدية بمصر.

– المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للذهبي، دار الفكر، ببيروت، عام ١٣٩٨هـ.

– مسند الإمام أحمد بن حنبل، وبهامشه كنز العمال، نشر المكتب الإسلامي ودار صادر ببيروت.

– معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، لحافظ حكمي، الطبعة الأولى، عام ١٤١٠هـ، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، نشر دار ابن القيم بالدمام.

– معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بتحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر للنشر والتوزيع، عام ١٣٩٩هـ.

– المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضع محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر ببيروت.

– المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، إعداد مجموعة من المستشرقين، مطبعة بريل في لندن، عام ١٩٥٥.

– مغني اللبيب من كتب الأعاريب لابن هشام، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة.

– المفردات في غريب القرآن، للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، الطبعة الأخيرة، عام ١٣٨١هـ، شركة مصطفى الحلبي وشركاه بمصر.

– مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق د. عدنان زرزور، الطبعة الأولى، عام ١٣٩١هـ، نشر دار القرآن الكريم بالكويت.

– منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، عام ١٤٠٦هـ.

– مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب طبع جامعة الإمام محمد بن سجود بالرياض.

– نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع، لعبد العزيز بن باز، الطبعة الثانية، عام ١٣٩١هـ، نشر المكتب الإسلامي ببيروت.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزواوي، ومحمود الطناحي، نشر المكتبة العلمية ببيروت.

- النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد، لجاسم الفهيد الدوسري، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٤هـ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.

فهرس الموضوعات

الموضوع